
رواية
كرم صابر
ملاك
أبو عبدو البغل



كرم صابر



كرم صابر / ش

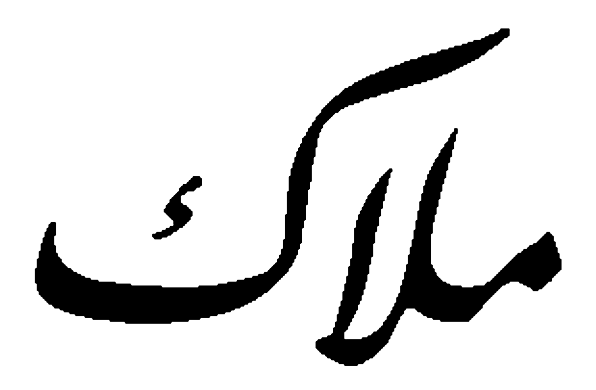
....
ملاك
الطبعة الأولى 2016
رقم الإيداع:
الترقيم الدولي:

الناشر
محمد البعلي

اخراج فني
علاء النويهي



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.


ملاک

كان دوري في هذه القصة الخيالية
استعارة الأحداث وترتيبها
حسب تصنيف أسميته:
البراءة

إلى الملائكة الحالمين

في

ربوع الأرض



(1)

ما هو الموقف الذي أدى لكل هذا الضياع؟ أيعيش الناس مراحل حياتهم غير عابئين بالنهايات المؤلمة؟! يا الله على كمّ القسوة! لم يكن هناك مجرد حلم، أو بصيص أمل، ومع ذلك داس «سعيد» على الأرض وقرر استكمال حياته.

هل دفعته إرادته كي ينطلق ويواصل، أم أنه قَدَرُه الذي لا مفر منه؟

أين هو الآن؟ أسمعه يصرخ: «أخي، ابني، حبيبتي، كيف أستعيدهم؟ وهل يشعرون مثلي بكل هذه المهانة؟»

ملعونة في كل خطوة ونفس، ومع ذلك نستنشقها كل صباح، نمسّي ونصبّح عليها كأنها الأمل.

لم يتصور طوال الربيع الماضي أن يصل إلى منتهاه، كان يراه جميلًا، ويغويه، فاستكمل سعيدًا بقوته لاكتشاف منحنياته، وحين وصل

إلى هناك شعر أنه دخل مغارة ليس لها قرار، أكلَّما وصل إلى مبتغاه يكتشف أنه وهْمٌ يقوده إلى أمل جديد؟!

اليوم يجب عليه أن يستحم ويتطهر، ولكن هل يمكنه نسيان وجوههم؟ لا أستطيع الإجابة؛ لأني بالفعل عاجز عن فهم ما جري في حياته.

عمَّ كان يبحث؟ وما دوافعه؟ الطمع، الاكتمال، الحرية، البراح؟ وهل ما حدث كان اختياره؟

سنوات طويلة مضت، ومراحل عاشها بأمانة، وأنعمت الدنيا عليه بكل الصفات، فهو الأخ والأب والزوج والحبيب وصاحب العز والجاه، الحالم بنموذج بديل لحياتهم، لتجاربهم، لكنه هوَى في النهاية إلى قاع القاع.

ما هي مسئوليته أو دوره؟ ما معنى هذه التفاهات أمام الدم الذي سال من عينه يوم علم برحيله؟ وأية قوة امتلأ بها القدر حين غيَّبه عن عينه؟ هل مات، أم هاجر، أم لا يزال يعيش ويتنفس ولا يشعر بقلب أبيه المحروق؟!

(2)

أحيَى داخل يومياتي كميّت، أضحك وآكل وأمارس الجنس، وأجلس على المقهى، وأقابل زبائني القلائل وأصدقائى، لكني لست الشخص الذي أرغب في العيش معه، أنا شخص آخر لا يحس بالسعادة، فمن أكون؟

لاحقتْه هذه الخواطر وهو يسير ويخرج من محطة إلى أخرى غير عابئ بالوصول إلى نهاية.

قالوا جميعًا في صمت ليلقنوه حكمة الأجداد: الزمن وحده كفيل.. «لكن من يستطيع أن يعيش وسط هذه الوحشة لدقيقة واحدة إضافية؟» يقول ذلك لنفسه، ويستمر في جلساته، يرتشف بهدوء طعم الشاي، ويستكمل: «ها قد وصلت إلى النهاية، فمن أين أبدأ؟» وهل هناك بدايةٍ جديدة لرجل يئس القدر من هزيمته؟ وأي عبث تلك الحياة؟ أكلِ هذه المحطات التي نزل فيها وعاشها بقلبه وجوارحه كانت خيالًا؟

أعاش عمره الماضي مخدوعًا؟ أكان في حلم ولم يُفِقْ منه أو يشعر

بالمأساة إلا بعد مرور خمسين عامًا جَرَتْ وتسحبت من بين يديه كالهواء؟!

يا لهول الزمن الكفيل وحده بالنسيان! يا لهولِ الزمن الذي مر والمنتظر أن نحياه في الحاضر أو المستقبل! أكلُّ دقيقة تمر تسقط ورقتها في النسيان؟ أهذه الوريقات القليلة الباقية هي ما تبقى من الحلم؟

راودته هذه الأسئلة وأكثر عندما تلقى خبر اختفائه، «كيف حدث ذلك؟»، «لن تراه مرة ثانية»، هكذا قالتها طليقته، وبالفعل نفَّذت ما قالت، «سأحرق قلبك عليه»، قالتها وأغلقت السماعة في كفر.

ما يحزنه هو حرمانه من حنانه، وغياب صوته وهو يطلب منه أشياء يمكنه تلبيتها بسعادة.

قال لنفسه: «لكنه ليس صغيرًا، هو يافع، ويمكنه أن يتجاوز أوامر أمه، ويأتي وسط الليل إلى منامتي ليعانقني ويبكي في أحضاني، فأطبطب عليه وأقول بثقة: ولا يهمك أي حاجة، أنا لسه موجود».

الأسئلة تلاحقه وصور الماضي تخرج من ذاكرته ثم تختفي وتعود، وهو يواصل خطواته في المجهول، نعم اختفى ابنه وفقد عمله وزبائنه وزوجته وحبيبته وأخاه الوحيد دفعة واحدة، فأي ظلم أو عدل ما قدمته إليه الحياة؟!

(3)

كيف هان عليه تقبُّل هزيمتها، وهي لم تتوقف لحظةً عن التفكير في سلب شعاع عينيه؟ ومن كان يقف خلف الجسر يرغب في هتك عرضه وشرب دمه؟

عاش هذا المشهد بصحبة حبيبته كأنه لم يحدث داخل حلم.

كان يجري حولها محاولًا إخراج مشاعره من أحشائه لإعادة الأمان المفقود إليها، يمسك الأمان بحُب في يديه، وقلبه ينزف، ليس من الألم، ولكن من الضجر، امتصَّه بقوة من عروقه، وحمله في الكوب، وجرى وراءها كي يسلمها تاريخهما المشترك، لكنها كانت تحلم بطفلتها التي لم تولد، فكيف هان عليها دهس قلبه وإلقاء كوبه في المصرف؟!

لا، لم يحدث ذلك، حتى في الحلم لم تفعل ذلك، بل فعلت أشنع منه بكثير، فقط فقدت كرامتها من أجله، ضحَّت بطفلتها المزمع إنجابها كي لا تفقده، ولتجعله حرًّا في قراره.

ضحَّت بمستقبل واعد ينتظرها، نعم كانت تعتقد ذلك، وهو

يقف مصلوبًا مرتعشًا من صدقها، كانت أمينةً مع نفسها، وآملة بأن هناك في هذا العالم شقًا أو خرم إبرة يمكن أن تمر منه.

لكنه صفعها ليدلل على كذب أحلامها، فانشغلت عنه أو به، وابتعدت، كأنها ترغب في الخلاص من وَصْمَتِه.

هل شعر بأنه سرق إحساسها بالحياة، بمستقبلها؟ لم يكن يهمه إلا المجد، «أنت الأقوى ولن تلين أبدًا، يجب أن يكون كل شيء خاضعًا لسيطرتك»، هكذا كان يقول ويأمر، وينسى أنْ لا أحد فوق الأرض سوف يعمر.

لكنه قرر بإرادته دخول المغارة، والهروب من المملكة، تركته «مريم» على حافة الطريق ودخلت أكثر في طريق معاكس إلى مجهول أكثر ظلمة، فهقهت وشربت من كل بئر مرَّت عليها حتى امتلأت وتشبعت واكتشفت هي الأخرى القانون.

لا شيء، لا توجد نهاية للنفق، حاول بسرعة أن يعود إليها، أن يعيدها، لكنها ابتعدت واختفت وسط السراب، وجلست وحيدةً تحت شجرة تحتمي بظلها من القيظ.

تناوب عليها مئات البشر بل الآلاف، وفي كل مرة يأخذون ما يرغبون ويهربون مثلها إلى عمق المجهول، فتجري وراءهم، وتنادي عليهم باسمه، فيخافون من صوتها، ويهرعون إلى سطح الجبل حيارى من ذل امرأة لنفسها رغم امتلاكها كل مقومات الحياة.

(4)

نعم كلنا سنموت ونرحل إلى هذا المجهول الذي يأسِر أرواحنا، وإلا فلماذا لا نتوقف في أية محطة ونكتفي بعطايانا؟!

المجهول الذي يسلمنا جميعًا أو يفرقنا، لا يهم؛ لأن قلب «سعيد» المقسوم المعذب يموت اليوم ليس من أجل المجهول ولكن من الحسرة على فراق ابنه الذي أخفته زوجته.

لم يفعل لها شيئًا، كل ما فعله أنه ذهب إلى المأذون وأنهى القصة، لكن القصة لم تتوقف ولم تنتهِ، بدأت فصول جديدة من المرارة، فابنه الذي عاش عشرين عامًا يسمع صوته كل صباح، سيغيب من الآن وإلى الأبد.

نعم حدث هذا وأكثر، أما هي التي تحملته كل هذه السنوات، فستحرمه من جدران الحظيرة التي ينعم داخلها الجميع بالوفاء، ولا يدرون شيئًا مما يجري في الشوارع الخلفية.

يتحملون بقدرة عجيبة حتى لا يفقدوا الزوجة أو الزوج أو الأولاد أو الحيطان الأربعة؛ لأن خارج هذه الجدران نارًا يتلظى فيها أمثاله.

«لو كنت أعلم يومها، لما دخلت هذا النفق، لكن ما تم قد تم، ولم يعد لهذه البكائيات أي معنى»، هكذا قال لنفسه وهو يواصل الشرب من الماعون.

تناسَى عن عمدٍ دقات قلبها ورقَّة عيونها، يوم رآها أول مرة بالشارع الواسع، تناسى فستانها الأبيض وعيونها الواسعة، يوم وضع يديه على كتفها ليريها أجمل بطل حلمت بوجوده إلى جوارها.

لكنه طمع في المزيد من الطعام والنوم، طمع في استكمال الطريق وحده، كان نور الطريق يناديه، فلم يتردد ودخل، وكلما مر من منحدر وقع في دحديرة، وهكذا، حتى اكتشف أنه حتى الطريق كان وهمًا، حتى حلم الوصول إلى النهاية كان مجرد هذيان.

لا توجد نهايات، حتى الموت لا يعرف أحد إن كان هو نهاية الرحلة أم بداية مرحلة جديدة من الخلاص.

لكن أن تخرج طليقته «أمل» وحيدة وسط الليل بدون زوجها، بدون سند، وتمشي وسط هؤلاء الكلاب الذين يحيطون بها، تمشي دون شعور بسطوتها التي فرضتها عليه وعليهم عشرين عامًا، فهذا منتهى الظلم.

لأنه حرمها من الشيء الوحيد الباقي، الشيء الوحيد لدي أية امرأة في هذا الزمان، ماذا سيكون سوى شرفها؟ ليس المقصود هو صيانة الفرج، هناك شيء أقوى من ذلك يدفعها لأن تواصل

تحملها، تواصل وتواصل كي تثبت له وللآخرين أنها ناجحة، وتستحق الوجود في الصف بجواره، فهو الذَّكَر الذي يعطي كل شيء، ويمكنه في اللحظة نفسها سلب أغلى شيء.

(5)

نعم لم يصـدق أن ما عاشه معهم كان وهمًا، وأن ما يجري في حياته الحاضرة هو الحقيقة، تعلَّم كثيرًا خلال رحلته، صعد ونزل وراوغ، لكن هل تصـور أن تحرمه الدنيا من مجرد الحلم؟

الآن اكتشفـت القانون، كلما أحـبَّ شيئًا واشتاق إليه هرب، وكلما اقترب أكثر ازداد بعدًا عنه.

هل هذه الجملة ملخص لحياته؟ لا أعتقد ذلك؛ لأن هناك الكثير من الصـادقين خلاف «سعيد» سعداء بيومياتهم ويعيشون بالطول والعرض، ولا يعطون لأحداثها أي اهتمام.

الآن يعودون ويقلقون مضـجعه، وهو يحاول أن يتـناسى أنين ابنه «ملاك» يوم خرج من عنده وهو ينقل قدميه بمنتهى الصـعوبة كي يخرج من مكتبه، هل تخيل لحظةً أَمَرَّ من هذه؟

«أنت والده وتقول بكل الصراحة: أنت لا تـستحق أبوتي»، هكذا قال لنفسه في أسى.

لم يتمكن ابنه من تحمُّل الصدمة وهو ضـعيف ومحب، كان يأمل أن يأخذه إلى جواره ويحابى عليه، لكن غباء العالم تجمع لحظتها في

عينيه وقال: «لا، لن يمكنني أن أضع نفسي مكانك، أنت ضعيف ويجب أن تتحمل قسوة الدنيا لتقوى، حتى لو اضطررت أنا، أنا المسمى بأبيك، أن أسقيها لك في كوب مصقول، إما أنا وإما أملك».

كانت الصدمة مهولة، فقام الابن مبتسمًا في وجهه، وسلم عليه بيديه، كأنه غريب عنه، وقال دون تردد: «مع السلامة يا بابا». من يومها لم يره أو يسمع صوته، وجلس وحيدًا، يقول بأمل ويناطح الفراغ: «لن يتحمل بعادي، لن يتحمل، وسوف يعود»، لكنه كالحلم تبخَّر بمجرد قيامه من النوم، طار وأصبح ماضيًا، «لا تجمِّل الكلمة يا أبتِ، وقل الحقيقة»، «لا أستطيع»، هكذا سمع هذه الكلمات يوم صحا من نومه مفزوعًا، ولا يعرف إن كان «ملاك» هو من قالها له، أم أن شخصًا لا يعرفه دثره وطالبه بالاعتراف بالحقيقة.

دخل الحمام ونظر بغرابة إلى القعدة وفتح الدش وأغلقه، ذهب إلى المطبخ وأضاء النور، جرى إلى الحجرة ورفع مرتبة السرير وفتح أدراج المكتب، لا، لا يمكن أن يحدث هذا.

لكن الحقيقة قابلته في الصالة وقالت بقسوة: «نعم، غرق، ولن تراه مرة أخرى».



(1)

لم يتصور «سعيد» أن هذين الحرفين يمكنهما أن يرسما حياته، كان صراعًا مريرًا ما خاضه لإثبات صحة هذين الحرفين اللذين يمكنهما أن يكونا دواءً لكل شيء.

نعم امتلأ بمَقْتِهم وهم يهينونه، وهم يلطخونه ويقيدونه في قضبانهم، وهم يسلبونه ابنه وبيته وزوجته وحبيبته وأخاه، كل شيء في حياته سلبوه، وهو يجب أن يردد في سلامٍ هذين الحرفين اللذين يحلان ألغاز العالم.

نعم كان يقول لنفسه وللآخرين هذا الكلام:

لا يهم أنك تعمل عشرين ساعة كي تأتي لأولادك بالطعام والدواء، لا يهم أن زوجتك تخونك أو لا تحبك، لا يهم أن أولادك فشلة أو ضائعون، لا يهم أن حبيبتك الآن تنام في حضن رجل آخر.

لا يهم؛ لأن بالكلمتين سرًّا ومفعولًا لن يتمكن أحد غيرك من فك طلاسمه.

فلا تتردد وأطلقهما في الفضاء، علَّهم يشعرون بالأمنيات الطيبة التي تتلوها وسط الليل الذي ينامون فيه بعيدًا عنك، لا يهم، واطلب منهم الغفران؛ لأنهم ضعفاء وخانوا طريقك، لا يهم أنك لن تراهم مرة أخرى، فيكفي أنهم يعيشون وأنت ميت.

نعم ردد كل ذلك في الماضي، وقتها كانت هناك مملكة هو مركزها، لكنه الآن مطارَد ومحروم منهم جميعًا، فكيف يشعر بهذين الحرفين اللذين كان مجرد نطقهما يثير أشجانًا ووجدًا داخل عروقه.

هل اختفوا من أعماقه، أم ذهبوا في رحلة بعيدة ولن يعودوا؟ ربما ذهبوا في رحلة أو دخلوا في راحة، وسيعودون حال انتهاء هذه المأساة.

(2)

أرجوك تمسَّك بموقفك، واجعل الحرفين حلقة في أذنيك، لا تتراجع ولا تتذكر منظره وهو يرفع قدميه من فوق الأرض بصعوبة، لا يهم؛ لأن حمله كان ثقيلًا، كان منظر ابنه «ملاك» هو أقسى ألم قدَّمته الدنيا إليه، فظل كالمجنون يبحث عن معنى القسوة.

قال لنفسه: «يا الله كيف واتتني الجراءة على نطق الحرفين في وجوده؟!» يا الله على الغم الذي تذكره حين نطق بقسوة! «نعم يوجد شيء يستحق، لكن يجب أن تبحث عنه بنفسك».

كمن وضع سنَّ الخنجر في جنبه، اتكأ ابنه على الكرسي المجاور وقال: «آه»، لم يسمعه «سعيد»، ولكنه شعر به وهو يستأذن ساخرًا من شفتيه اللتين تحركتا معلنتين ضرورة مقاومة اليأس.

خرج وراءه ليراقب همسات جسده السمين وهو يترنح من الحزن، بينما يحاول «ملاك» أن يسير بكل ما أوتي من قوة أمامه راغبًا في ألا يراه مرة أخرى، تسحَّبَ خلف خطواته البطيئة أملًا في أن ينظر وراءه، ولو لمرة واحدة، كي يتأكد أن أباه لن ينساه، وأنه يحتاجه إلى جواره، لكنه لم يفعلها وظل يواصل خطواته البطيئة إلى مجهول يعرف أنه مر.

مشهد آخر ما زال يؤلمه، مشهد يحتاج إلى كاميرا يقف من ورائها مخرج كي يصور الآلام البشرية وهي تترنح على مرتبة السرير، نعم كانت «مريم» تنام تحته وتغمض عينها وتصرخ من الحزن أو الألم، لا أتذكر.

تصرخ رافضة نومها تحته، لكنها غير قادرة على نطق الحقيقة، تصرخ وتدعوه إلى القذف بداخلها كي يخفف من حمولته ويرتاح، تتلوى وهو يتفرج عليها ويطبطب على ظهرها، وهو لا يدري أن رفضه لرغبتها طعنةٌ غادرة لن تقوى على تحملها.

فتحت عينها وأشعلت سيجارتها وسألته عن اسمها، فرد بأسى: «إنتي حبيبتي».

لم تصدق وبصقت على الأرض وقامت، لبست ملابسها وألقت السيجارة في الحوض وضحكت، تفتَّتَ جسدها داخل مشاعرها، ولم يَدْرِ هل كانت تسخر من نفسها أم كانت تبكي عليه!

نظر إليها كأنه يراها للمرة الأولى، ذكَّرها بنفسه: «أنا حبيبك»، فازداد هياجها، وضعت يديها على فتحتها، وشخرت على غير عادتها، وعيَّرته بأنه ضعيف ومهان، وأنها ستبحث عن رجل بديل يعطيها الأمان.

كاد ينطق الحرفين، كانت نبرات صوته كفيلة بإعادتها إلى سلامها، لكن لسانه انعقد، لم يسعفه، وتركها تنزل كالمجنونة تبحث في ظل أي رجل عن معنى الفقد، فهل وجدته «مريم» أم ما زالت تبحث عن حلمها المستحيل؟!

(3)

رغم أنه نطق الحرفين في اللحظة الأخيرة، لكنهما فقدا تأثيرهما السحري أمام إصرار ابنه ليعْدِل عن فكره ويعترف بجريمة لم يرتكبها.

ماذا كان سيحدث لو وافق؟ لماذا رفض أن يأخذه بحضنه؟ وأيقن أنه سوف يعود يومًا ما رجلًا حاملًا لمسئوليته، وحتى ولو فشل في حمل الأمانة، فيشفيه بوضع الحرفين على رأسه.

أي جنون طال عقله وهو يطرد وليده من الجنة، وليده الذي عاش عشرين عامًا يسمع صوته كل صباح؟!

كيف واتته الجرأة على وضع ابنه في كفة وثقل الحرفين في الكفة الأخرى؟ أي جنون طال عقله ليتصور أن قيمة الحرفين أرجح من الدنيا كلها؟!

من أعطاه هذه الثقة؟ لا أدرى، لكنه قال لنفسه: «غدًا سيعود لعقله»، كان يعيش على هذا الحلم، نعم يجب أن يكون هناك دائمًا حلم، وإلا فما فائدة الحياة؟!

ابنه الذي تحرر من قسوة الماضي اللعين، وتاريخه المليء بالأسى،

ابنه الذي كان يشتهي أكل الخضر، كأنَّ بأحشائه أرضًا نهمة لا تعرف إلا النضارة، رفض احتضانه لذهابه وراء أمه.

هل كان يشفق عليه حين رفض وجوده في حياته؟ كان يعرف أن الزرع لا يمكنه مغادرة الأرض إلا بالقلع، وستكون النتيجة جفافه وموته، فهل شعر بثقل الحرفين وهو يلقي بوليده في الخراب؟

قال لنفسه: «لا يمكن أن أكرهه»، يوم ولادته رأى رؤيا غريبة كانت بمثابة نورٍ لطريقه، كان يموت داخل تابوت وسط السماء، وفوجئ وهو داخل التابوت أنه يحلم أو يلد، تخزَّق وضغط على أحشائه، فنزل من فتحته طفل صغير شبيه بـ«ملاك»، ورجل عجوز يرتدي جبة وقفطانًا شبيه بأخيه «نور».

بكى كالميتين وقال لنفسه: «رغم أن الرجل العجوز حدثني كحكيم، لكني أحببت الطفل وشعرت به ينطق الحرفين بحب».

(4)

لم ترحمه «أمل»، واعتقدت أن الحكم الصادر ضده سوف يجعله يلين ويركع تحت قدميها، لم تكن تريد إهانته، كانت تريد أن تقول إنها موجودة، موجودة فقط.

لكنه استكثر عليها هذه الكلمة، وقال بغدر: «لست عبدك».

كيف جرؤ على التلويح وسط الشارع بفضحها؟ ذهب للمأذون ووقَّع على الورقة التي تجعلها عارية وسط الأحياء دون إحساس بالذنب أو مراعاة لعِشرة أو مستقبل.

كيف فعل ذلك؟ لا أدرى، ويجوز أن أحد أصدقائه أشار عليه بذلك، ويجوز أنه كان يرغب في الانعتاق، نعم يجوز، فعندما نفشل في مواصلة طريقنا الذي خُلقنا من أجله، نقول: يجوز، أو ربما.. إلى آخر السجل الحافل لمواصلة خيباتنا.

المجهول الذي نسعى إليه وينتظرنا جميعًا، والذي نهرب منه أو نتمناه، يعيش الآن بيننا، يعربد وسطنا، ولا مكان في هذا العالم في تلك اللحظة إلا لصوته الرنان.

فلماذا ابتعد «سعيد» عنه طوال حياته الماضية؟ هل كان يخافه؟

ولماذا قرر الدخول فيه، ونسي الحرفين اللذين مزقا روحه وجعلاه عبرة لكل شخص حاول أن يحيى في سلام؟

قال لنفسه وهو يدور وسط الفراغ: «يجب أن أنسى، وأسير مثلهم، لا يهم أن أكون عاريًا أو كاذبًا، لا يهم أن أكون جبانًا، فماذا تعني هذه الكلمات والصفات سوى وصمة ابتدعها البشر».

لكنه سمع صوتًا يهمس من داخله ويقول: «لا تكابر فأنت مثلهم، لا تكابر، ألقِ الحرفين في الخراء، واستكمل، إذ ربما يقبلوك، ويجوز أن يرفعوك، لكن من المؤكد أنك ستصبح مثلهم غير شاعر برؤية حقيقتك في المرآة».

(5)

في كل مرة يسـأله أقرب الناس إليه: كيف حالك؟ كان «سعيد» يجيب بصـدق: «الحمد لله».

فهو يعلم أن دوام الحال من المحال، لكنه متيقن من أن وضعه الحالي أفضـل بكثير من وضعه في المستقبل، هكذا كانـت حياته، سلسلة من الخسـائر والتدهورات غير المفهومة، خسـر طفولته، وأمه وأباه، خسـر تاريخه المشترك مع أخيه «نور»، خسـر أصـدقاء المدرسة والجامعة، وزبائنه الطيبين، خسـر زوجته وحبيبته وابنه.

ورغم ذلك تمنى دوام الحال، وأمل ألا يتدهور أكثر؛ لذا لم يتحرك في مواجهة أحد، ولم يقم بفعلٍ يؤذي الآخرين، وكان دائمًا رد فعل لقسـوتهم أو حبهم.

لكنه في المرة الأخيرة قام وذهـب للمأذون ووقَّع على الورقة، لا يهم أنها كانت رغبة زوجته أو بناءً على طلبها، لا يهم لأنه تمنى هو الآخر الانعتاق من رؤية وجهها كل صـباح.

الآن يعرف لماذا هرب إلى الفراغ، ولماذا هو الآن خارج حياتهم المملوءة بالشـوق، كان اكتشـاف قانون الحياة الغريب أهم عنده من

رؤية لون وشعاع عيون «ملاك» كل صباح.

كان اكتشاف ألوان اللوحة أهمَّ من حياته، غامر وضحَّى بكل شيء على أمل أن يتوقى ضربة قادمة، ضربة لا يعرف وقتها أو مصدرها؛ لذلك سار طوال العمر يحلم بدوام الحال، لأنه بلا شك أفضل من مستقبله.

يواسي نفسه ويقول محزونًا عندما تلوح صورة «مريم» حبيبته في مخيلته: «ما معنى الأسى الدائم؟ من الأفضل تركها لتواجه حياتها، وقتها لن تجد معنى للاختيار بيني وبين عشق جديد، يجب أن تكون مثلي، مثل الملايين التي تعيش من حولنا، مجبرة على اجتياز نفس الطريق، المجهول، يجب تركها دون وداع، ولكن بإرادتها، فهذا هو القانون.

لكن الزمن لا يعود إلى الوراء وهي تسير الآن بالفعل نحو مصيرها، وتحتاج فقط أن تقول: «مع السلامة»، لن أمكنها من ذلك حتى لا تعود، فلحظة الوداع هي التي ستقرر شكل علاقتنا القادمة، يجب ألَّا أترك لها أية فرصة حتى تحس بالانتصار وتبرر لنفسها تدهورها وانحدارها نحو الفراغ الذي ليس له نهاية»، هكذا قال وهو يبكي فراقها.

لم تأتِه هذه الخبرة من فراغ، فرغم أنه يقابلها، لكنه يعلم أن موعد رحيلها قد آن، هكذا علمته الحياة عندما يتمسك بشيء ويتمناه، يرحل، يرحل بعيدًا بلا رجعة.

أخوه رحل وابنه رحل بنفس القانون، فكيف حلم بالكذب أنها لن ترحل أو أنها ستعود يومًا ما على ظهر حصان أبيض تبحث عنه وسط الظلام؟!

حين حملت حقيبتها من على الكرسي المجاور ووقفت، نظر إلى عيونها وعلم أنها تواصل نفس الطريق المؤدي إلى الموت.

كان يمكنه إنقاذها وإيقاف جنونها، لو نطق فقط الحرفين، لكن لسانه انعقد، وغرق مثل ابنه في عالم مسكون بالضياع والخوف.

«خيط»

(1)

كنتُ على حافة الجنون عندما دخلت هذا العالم، يا الله كيف تمكنوا من العيش بداخله كل هذه السنين؟ أي حرائق أكلت قلوبهم وحولتها إلى هشيم؟ أي نار حولت الأخضر إلى حجر ميت لا يحس؟

لكنني كعادتي كنت أراوغ وأدور وأملّس على الصخر معتقدًا أنه يبادلني نفس الشعور.

كنت أثق بقدراتي في تحويل هذه الجبال الصماء إلى حياة، أعافر وأعافر ولا أسمع إلا صدى مرزبتي الضخمة التي يستهزئ منها الجبل.

لم أفهم أن لكل كائن حي طريقته التي اختارها بإرادته أو أجبر عليها، لكنها طريقته، ولا يمكنه أن يحيد عنها أبدًا.

كيف تخيل «سعيد» أنه يمكنه التخلي عن نبع حياته؟ كيف تخيل

ذلك؟!

دخل في نوبة هذيان، وشعر بأن العالم يقف على بابه وينتظر النتيجة، كانت الإجابات كلها يائسة، وهو لا يستطيع رغم وضوحها أن يميِّز بينها، قاوم بضراوة وفخر وقرر الاستغناء عن الجميع.

نعم لم يكن هو السبب في كل ما جرى، فالأحكام المتلاحقة التي صدرت ضده لإدانته ومطاردته، لم تراعِ دفوعه المنمقة ولا نيته الطيبة، بل إن القاضي المهيب فتح فمه ونظرَ إليه ساخرًا من وجود بشر مثله في عصرنا هذا الذي نحيَى الآن وسط ناره، بشر يمكن أن يكونوا بمثل هذه البلاهة.

يومها شعرت بأن القاضي والمتخاصمين أدانوه لسبب يكمن في داخلهم، لم أعرفه، لكني كنت متأكدًا أنه بريء.

كيف ذلك وهو المطارَد من العدالة، والذي وقفت زوجته وسط الشارع وأمام أصدقائه وأخيه تطالبه بثمن حياتها المهدرة، ثمن تحملها لهاربٍ خلال عمر لا تتذكر كم أحزانه؟!

كيف ذلك وهو الذي وقف ابنه أمامه في ذل يطالبه بالعدول عن أفكاره كي ينعم بالعيش معه ورؤية وجهه الباسم كل صباح؟!

حتى حبيبته التي كانت أرقَّ من النسمة قابلته وطلبت منه العودة إلى شقتها، لكنه رأى شعاع عينيها وهي تخرج من حجرته المخفية بباطن الأرض تتشفى في حاله.

لكن أخاه زاره في مخبئه وبكى بحضنه، ووعده بإخفائه عن أعين البوليس، وتوسل إليه أن يعود ولا يهتم بوشاية الجيران، لكنه ضحك وقال: كيف يمكن لذاكرتي أن تفقد عشرين عامًا وأعود كما كنت؟ فأي كائن مشوه ترغبون في رؤيته أو حمايته؟!

(2)

نعم شعر بمثل هذه الأحاسيس فقرر أن ينتقم من نفسه، من طيبته، منهم، لا أدرى.

أعمت عينه فجأة غشاوة لم يتبينها، كل ما شعر به أنهم غادروا بإرادتهم مرة واحدة، فحمل معوله وعاود حفر الجبل، لعل الصخور تنطق، وتعيد طيف أحدهم إلى وجدانه.

حتى حبيبته لم تنتظر تحريره من الأسر، ولم تتوانَ أو تتردد لحظة وحزمت أمتعتها كاملة ولم تترك حتى قميصًا واحدًا بمخبئه، تنكرت حتى لقطعة القماش التى كانت ستذكره برائحتها.

قامت مفزوعةً ونظرت في عينه وقالت: «لن أنتظرك، هل تفهم معنى ذلك؟»، كانت تتلظى من داخلها وهي تقول: «عشيقي الآخر ينتظرنى، ارجع معي حتى لا أنتقل إلى أحضانه».

لماذا شعر بكل هذه القسوة في عينها، رغم أنها لم تقدم له إلا الحب؟ لا أعرف، وهو أيضًا لا يعرف!

كل ما آلمه أنها فضلت عليه بطلًا جديدًا، بطلًا من طينة أخرى، طينة لا ترحم ولا تحس، طينة مطلية بالهزل والوشاية وتمتلئ

بالبلاهة، وتجري في الحياة كالحيَّات غير عابئة بالخروج من الظلام الذي يحيط بحياتنا، بل وتستمتع به كأنه ملاذها.

كان يمكن أن يغفر لها لو انتقلت إلى حضن شخص آخر وديع يمكنه أن يصون حريتها.

لماذا فكر بهذه الطريقة؟ هل أحبها فعلًا، أم شعر بأنه مخدوع؟ نعم، رافقت دائمًا نفس النماذج المتناقضة مع حياته، المتناقضة مع سلام روحه وخفتها.

هل حدث ذلك فعلًا، أم تمنى حدوثه؟ هل وقفت عند حافة الباب وأخرجت لسانها وعيَّرته بضعفه وتشفت في ألمه؟ أكان يملك في حياته سوى هذين الحرفين اللذين لم تصدق أبدًا أنه نطقهما.

ماذا كان يقول إذن طوال أكثر من عشرين عامًا مرت ولا يتذكرهما أحد.

أدار وجهه عنها في غضب حتى لا يؤلمها، فرحلت دون وداع، وجلس وسط الحمم التي أشعلوها بقلبه، وأشفق رغم صوت الدخان ورائحته على وحيده الغائب.

(3)

سار في الممر محاولًا التلصص على السماء التي ألقت بالحرفين على وجهه دون أن يشعر.

نظر إلى طيف أخيه «نور» وسأله: «أيمكنك أن تساعدني؟» كان «نور» يرغب في إعالته حتى يخرج من أزمته، لكن أولاد «نور» وزوجته زعقوا وقالوا دون إحساس بالألم: «لماذا تحمّلنا همومك وأحزانك؟ نحن لسنا شركاءك، لماذا ندفع بدلًا عنك؟» فأغلق «سعيد» بابهم وراءه وغادر بلا رجعة.

جلس «نور» وحيدًا داخل حجرته يبكي لتركه أخاه وحيدًا في الشارع الموحل، حاول أن يقوم ويجري وراءه وينادي، لكن «سعيد» اجتاز طريقه ووصل سريعًا إلى حافة الممر، ولم يتوقع المجهول الذي ينتظره بشغف.

شدته زوجته من جلبابه الواسع فجلس بجوارها مأسورًا بطعم بطيخها المالح، وتندر مع أبنائه، ولكن عندما تذكر صوت أخيه، دخل حجرته وبكى من جديد.

في الليل جاءه «سعيد» في الحلم يمشي وسط الشارع كمتسول،

يصرخ ويضحك ويبكي في آنٍ واحد، يمسك عصا طويلة ويتعكز عليها، جرى إليه وشده كي يفيق ويعود معه إلى منزل أبيه.

كان غريبًا أن يسمع لأول مرة «منزل أبيه». فعصر ذاكرته الميتة التي تخللها النسيان واخترقها، فباتت كبقعة قديمة مفتتة هُتكت من الأخرام والإهمال، نظر في وجه أخيه وقال: «منزل أبيه، هل تحدثني أنا؟ هل لي أب؟ هل نطقت هذه الحروف؟ هل عشت هناك ومعك في بلدة لم أعرف فيها أحدًا؟ أنت تكذب وتخدعني!» وضربه بعصاه فجرى «نور» بعيدًا معددًا على حاله.

أثناء عَدْوِه شاهد أباه وأمه يجلسان على قارعة الطريق بجوار مصرف خرب، ناديا عليه، فاقترب منهما، وسألته أمه عن أخيه: «كيف حاله؟»، لم يرد.

أمسكت بخناقه وطالبته بالأمانة، الأمانة التي أعمت طريقه أو فتحته، وجعلته يعتقد أنه رمى حمولته بمجرد عمل أخيه الصغير وزواجه، فعاد مصروعًا إلى الطريق ينادي بحرقة: «إنت فين يا خويا!»

(4)

كان الجميع يبجّله، وحتى وهم يؤذون جوارحه، تفاخروا بوجوده، واتفقوا دون إرادتهم بإغلاق الخيَّة على رقبته، وهو يقاوم، ويؤجل قرار النهاية، وهم يستعجبون لماذا يصر على الاستمرار في هذه المهزلة؟

ألم يُكْفِه مهانة ووضاعة وخسَّة؟! ماذا يسعده في استمرار المشهد؟ لم يكن يملك إجابة رغم عجزه وقيوده، لكنه قاوم ومنع العقدة أن تنحل.

هكذا تصور أنه يدافع عن حياتهم بالشيء الوحيد الذي يملكه، وهم في موقف الدفاع أو الهجوم يتعدون، ويحاولون أن يثبتوا مثله إنهم لا يملكون إلا الحرفين.

لم يسمع أحدهم الآخر أو سمع وتصور أن الآخر يخدعه.

لا أدري، لكني كنت قريبًا منهم وهم يقررون بضراوة أن ينتقموا من رحلتهم التي زرعوا فيها وحصدوا، وتمنوا وعاشوا، وأكلوا وشربوا، كانوا يعافرون ويغضبون ويتعذبون من البعد والهجر، ولم يشعروا أبدًا أنهم حيارى أو مذنبون.

فلماذا جاءتهم هذه الأفكار والحيل مع اقتراب النهاية؟ لا أدري، لكنهم كانوا يبررون كي تستمر حياتهم في الدوران بأن الآخرين هم السبب.

فهل دبر «سعيد» الخطة باعتباره المركز الذي تلتف حوله الزوجة والابن والحبيبة والأخ، أم أن هناك أنذالًا يقفون في الفراغ المحيط بنا ويمسكون الخيوط كلها ويحركونها كما يشاءون؟

أثناء اختفائه، كان يجاوره في سكنه قواد وزوجته يعيشان حياة رائعة، قواد اسمه «يحيى» ومشغول طوال اليوم بجلب الزبائن والاتفاق معهم على أسعار زوجته «رجاء» التي يمكنها القيام بأوضاع كثيرة لا يتخيلها أحد، كل شيء له ثمن: الهمس، الحك، المص، الهتك.. إلى آخر القائمة الطويلة التي عرفها من القواد، والتي تجعلك تفقد ذاكرتك وتنسى خياناتك.

كانت «رجاء» رقيقة، تجلس في صالة الشقة أمام حجرتها المجاورة لحجرته أثناء راحتها من الزبائن، تجلس في ود أمامه بقميصها القصير العاري دون ارتداء أي ملابس تغطي ثديها أو فرجها.

دائمًا تمضغ لبانتها بمياصة، وتجبر الصخر على التحرك من مكانه، ومشغولة على الدوام بمرآتها الصغيرة كأنها تقيس جمالها بعد كل مضاجعة، وتبتسم دون سبب.

كانا يُشِعَّان براءةً وجمالًا، ولم يكن ينقصهما أي شيء في الحياة ليعيشا في سعادة بالغة، لكن أهل البيت اكتشفوا فجأة خيانتهما،

فقرروا ذبحها. أراد أن يوقفهم، أن ينطق الحرفين، أن يصرخ ليخفف بلوة فقده للكائنين اللذين يربطانه بعالم البشر، لكن لسانه انعقد كعادته ولم يتمكن من نطقهما، في هذه اللحظة ودون أن يحمل أية حقيبة شاهد نفسه يترجل من باب المنزل بلا عودة.

كان حزينًا على فراقهما، لم يعاشر سواهما طوال هذه الفترة التي عاشها ممتنًا للقدر الذي أسمعه صراخ امرأة فاجرة، على الدوام، كانت تعامله كأخ، وبادلها نفس الأحاسيس، لكن القدر اللعين حرمه من عاهرة وقواد كانا أمله الوحيد للبقاء.

(5)

الآن لدينا بطل يمكن أن نبني عليه ونحط، بطل مهان وضعيف لأنه خسر ابنه وزوجته وحبيبته وأخاه في ضربة واحدة.

بطل ظل يقاوم حتى وقع في المحظور، خسر كل شيء ونظر حوله فلم يجد إلا ماضيًا مدفونًا يذكره دائمًا بقسوته.

لكن الشيء القاسي أنهم جميعًا تلقوا نفس الضربة، فأي سهم شق قلوبهم وشطرها إلى مئات القطع ولطخ وجوههم بالدم؟ أي مجرم قام بهذا الفعل؟ وأي عمى قادهم إلى هذا المصير؟!

أقول ذلك بصدق ليس كصدقهم، ولكن لأني جمعت أوراقهم، وسمعت منهم نفس القصة ولكن بنبرات مختلفة، ويجب أن أراعي الأمانة، نعم ها هي الكلمة المهتوكة «الأمانة» تعود من جديد.

من أفقدنا الثقة بأنفسنا لنرغب مع كل حلم في الأمان؟ من سرقنا وسرق هؤلاء الأبطال كي يتغربوا ويصلوا إلى هذا المنحدر؟!

لا أدري، ولكن أعتقد من خلال معايشتي لهم أنني أعرف كل شيء عنهم، تناسيتُ أن ذاكراتهم القاتمة لها حِيَلها، فتكشف فقط عما ترغب في إظهاره لنا، وتتركنا حيارى في باقي التفاصيل التي

لم يرووها: كيف تعرفتِ عليه؟ من بدأ بالكلام؟ هل استجابت؟ ما هي الكلمة التي جعلتها تخرُّ أمامه وتفقد عزيمتها وقوتها؟ هل شعرت بنبرة صوته؟ هل صدقها؟ صدقته، أم أن مشهد الخيانة الذي جرى كاملًا في منزل «يحيى عليش» وزوجته «رجاء» كان من صنع خيالي؟ وأي نوع من المعايير الصحيحة أو الخاطئة التي تدعو لقتل اثنين من البشر رأيًا أن مهنة الداعرة والقواد هما كل ما يملكان باعتبارهما الشيء الوحيد المتاح في هذا العالم؟

كنت أدخل بشغف روح كل واحد فيهم، أسأله أو أستجوبه لأفهم ما جرى، كنت أرغب في معرفة روح القانون الذي كلما أحببنا شيئًا فقدناه، أرغب في معرفة نضج الأُطر وسلامة المعايير التي تجعلنا نسير في طريق النجاة دون غرق أو فقد.

كنت تلميذًا بالنسبة إلى خبرتهم، نعم كانوا يعيشون طوال عمرهم في هذه البرْكة التي لا تعرف إلا هذه الرائحة، بينما أنا الداخل إلى أعماقهم منذ وقت قليل، أندهش، وهم يموتون بقربي أو في داخلي، دون الشعور بنصل السيف الذي يمزق أحاسيسهم، فمن كان ورائي أو خلفي ويدفعني لاستكمال المرور في أنفاقهم المظلمة؟

حتى أنا الذي سمعت منهم تفاصيل الحكاية نسيت نفسي بعض الأحيان وتشممت رائحة البركة، فأسكرتني، وأعمتني، وظللت وقتًا طويلًا غير مصدق أنني أرى.

فهل خدعوني أم أن العمى الذي طال أرواحهم قَدَرٌ لا يمكنهم تجنبه؟!

تحدثوا كلهم، وبرروا ودافعوا عن أنفسهم وعن الآخرين بطريقتهم، لكن «سعيد» كان محزونًا عن آخره لغياب ابنه «ملاك»، ألقاني القدر في طريقه، فنمت إلى جواره وخدمته في محنته، كأنني ابنه أو حبيبته أو شخص دخل حياته عن طريق الخطأ.



(1)

ها هم يعودون كالذئاب ليتقموا منهم ويفقدوهم ذاكراتهم المحطمة لحظة الانتصار عليهم.

يقذفون النابالم في جنون على طائرنا الحالم بالبراح ليغرد خارج حياتنا، كأنه لا يعرفنا، لكنه يلازمنا أينما سرنا ويدفعنا لمواصلة الطريق.

يقول «نور» لنفسه كلامًا شبيهًا بذلك ويأخذ بيد أخيه الوحيد ويعبر البرك المحيطة ببلدتهم ويدخله من سور المدرسة.

لم يهتم «سعيد» بملابسه المبقعة أو عيونه المذهولة، وينظر بداخله ويعاهد أخاه على مواصلة النجاح.

كانا رفيقين بعد موت والدهما وأمهما في حريق ضخم بالقرية، ولم يتبقَّ لهما أحد، وعاشا بأحلامهما وواقعهما مراحل من السعادة لم

يتخيل أحد أن يصلا إليها.

تدفق «سعيد» في منزل أبيه المحروق وأمه الغائبة غير عابئ إلا بالنجاح، فكيف يخون الوعد والأمانة اللذين قطعهما على نفسه وأمام أخيه؟

أضحى خفيفًا ومنطلقًا، دخل عوالم كثيرة، ولم يغب الوعد أبدًا عن عينه، عندما انتهى من دراسته وتدريبه، فتح مكتبه ليزاول مهنة المحاماة فشعر «نور» أنه أدى الأمانة.

ها هي الأمانة تعود من جديد، فبمجرد شعور «نور» بإلقائها عن ظهره، ذهب إلى أحد أقاربه وتزوج وأنجب أولادًا، وتفرغ تمامًا لعمله في الحقل، ونسي «سعيد» الذي ظلل عليه حتى عمل ورحل من البلدة مفتخرًا بصعوده سلّم الحياة.

لكن «سعيد» كما عوّدته الذاكرة كان يحتاج إلى ونيس، يُحمّله ظلم الدنيا وقسوتها، ونيس يضع قلبه لديه كي يستمر في غزواته ويكسب مساحاتٍ جديدة في خضم الحياة.

وعندما رأى «أمل» في الشارع، اختارها قلبه دون تردد، ذهب في الليلة نفسها إلى منزلها القريب من مكتبه وخطبها واتفق على كل شيء بدرجة أذهلت والدها الذي مات بعد زواجهما بيومين.

لم يكن هناك وقت، كان البطل يرغب في وضع بؤجته وكيس مشاعره المفتوح بأحد أركان الدنيا ليواصل هزائمه أو نجاحاته.

(2)

انتهت مراسم الفرح سريعًا ودخل «سعيد» عليها كأول امرأة يقتحم عالمها السري، لم يصدق هول ما رآه من أسوار في هذا السرداب النائي الغائر، «كيف يعشن حياتهن وسط هذه الأحزان أو الآلام؟!» هكذا سأل نفسه.

تعاطف معها ونسي حكاياتها السابقة عن عشاقها، تجاوز بصعوبة كل ماضيها رغم أنه لا يخصه، وقرر أن يقدم لها يد العون، مقابل أن تخفي كيس مشاعره المفتوح بين جفون عينيها.

أبدعت زوجته في حجرات الشقة الضيقة، وضعت ورودًا بين الأركان، وعلقت على جدران الحوائط صورًا لقديسات وفرسان وأحصنة، أدارت أيامًا كثيرة قرب الليل الراديو على موسيقى وأغانٍ تمنّى سماعها.

عاش سعيدًا بوجودها، وشعر أنها بديل عن أخيه «نور» الذي أخذته الدنيا إلى عالم أسرته وحقله، حينما كان يحدثه في التليفون أو يقابله بالصدفة في البلدة حال زيارة مفاجئة، ينظر إليه في حزن مرير، كأنه يرغب أو يأمل أن يرد إليه «سعيد» جميله.

يا للهول على تلك النظرات المتأسية التي تجاهلها واستكمل حياته معتقدًا، أو هكذا رغب في أن أخاه «نور» يحتمي في أمله بعد استيلائه على تركة والده وأمه وتاريخهما المشترك!

يجلس على المقهى آخر الليل ويقول في صمت: «حتى ملابس أبي ومصاغ أمي، حتى التربة التي دفنَّا بها، علاقتهما، أصواتهما، انطباعاتهما، امتلكها وحده بصفته الأخ الكبير الذي عاش كل الوقت معهما، بينما أنا، لم أعش برفقتهما إلا سنواتي الخمس الأولى».

يشعر بالظلم من الدنيا والبغض على أخيه رغم أنه يحبه، ورغم أنه رباه ورعاه حتى استكمل تعليمه وفتح مكتبه، وظلت هذه الأوهام ملازمة له فترات طويلة خاصة حال يرى أخاه في فرح أو عزاء أو حتى بالصدفة.

أصبحت «أمل» هي الأمل الوحيد الباقي، ملأت منزله الصغير بالمحبة والعشق، وحين أنجبت «ملاك» لم يصدق نفسه وقال: أيجوز أن تعطينا الدنيا كل شيء؟ كل شيء؟!

اقتحم العالم وراوغ كي يجعلهما أسعد الناس، لكنه نسي نفسه وتصور أن الأموال التي يكسبها تكفيهما عن رؤية وجهه وري زرعه.

هكذا تخيل أو اعتقد؛ لأنه عندما كان يعود إلى شقته ويجدها سعيدة برفقة ابنها، يشعر أنه غريب، غريب عنهما، كأنه شخص آخر، شخص لا يعرفه، بينما الشخص الذي كان يلازمه طوال

النهار والذي يعرفه نسيه أمام الباب قبل دخوله الشقة.

هناك شيء كان يذكِّره بنفسه الضائعة حين يدخل، شيء يطعن قلبه ويجرحه، ولا يعرف هل كان هذا الشيء هو حنينه لطفولته، لأمه، لأبيه، لأخيه، لحبيبته، حنين لا يجده في منزل «أمل» التي كافحت ليكون أسعد الخلق.

تصحو كل يوم كالنحلة، وتذهب إلى المستشفى، توقع في الدفتر، وتلاغي زميلاتها، وتضحك لتعود خفيفة إلى بيتها الذي شعرت أنه ملاذها من عيون كل أقاربها خاصة أختها المطلقة التي قاطعتها بعد زواجها.

لم تتفاعل مع ألم المرضى أو قذارة أسرَّتهم، رأتهم كصورٍ تجري أمامها على شاشة سينما مضطرة أن تجلس في قاعاتها عدة ساعات.

أيقنت وحدها بأن كل البشر حزانى ويستحقون الشفقة، لكن قانونها يقول: «أنني أكثر امرأة تستحق العطف».

لم تتدخل في أنظمة الإدارة أو مكايدات زميلاتها، وظلت تدخل المبنى القبيح الذي يقف المرضى على بواباته بالساعات لمدة عشرين عامًا دون أن توطد علاقاتها بأي شخص عاملًا كان أو زائرًا.

عاشت بلا ذكريات، ولم ترغب في تذكُّر ماضيها، كأن داخل أعماقها وحشًا يرغب في اغتيالها إذا لم تَنْسَ صوته وتفقد ملامح وجهه.

أضحى «سعيد» و«ملاك» كنزها وما تبقى لها تحت قبة السماء، فكيف لا تحافظ عليهما؟! عاشت سنين طويلة محتمية بهذه الرؤية أو داخل هذا الحلم.

لكنها كانت لديها مشاعر وتحس بزوجها الذي كلما دخل من باب الشقة تغيرت ملامحه، لم يكن يكرهها، لكنه لم يكن «سعيد» الذي تعرفه، كان يصرخ في صمت كأنه يرغب في الهروب من جدرانها.

رغم أنه لم يتحدث قَطُّ بلسانه، لكن نظرات عيونه كانت تخفي الرجل الذي تركه أمام الباب قبل دخوله.

كانت تبحث عنه في كل خلايا جسده، تبحث عنه وهي تلتهمه بحواسها، رغبت في أكل أحشائه، فجعته، وأسعدته، وشعرت بالراحة مئات المرات حين عثرت عليه وشاهدت ملامحه الرقيقة فوق السرير تتلوى من الفرح.

لكن طفل «سعيد» البريء الهارب، كان يختفي سريعًا بعد انتهاء المعاشرة.

امتلأت بالهمِّ وأهملت زوجها وابنها، وعادت تدور وتلف كل يوم من البيت إلى المستشفى إلى السوق إلى النوم.

هكذا أصبحت حياتها رتيبة، كأن الوحش الراكد بذاكرتها قد خرج ليذكِّرها بقانونها: «لا، لن تستكملي حياتك بهذه الوحشة، يجب أن تبحثي عن مخرج، فالعمر يجري وسعيد هارب على الدوام».

(3)

يشتهي «ملاك» أكل الخضر، كأن داخل جسده أرضًا خصبة عفيَّة تحتاج إلى البذر والحصاد والري.

عاش بين أب وأم تزوجا عن قصة حب، ثم أصبحا في النهاية بعيدين، يعيشان خارج شقتهما بوجوه محايدة، ويعودان إلى مخبئهما بالشقة ليضعا في قلبه كل حياتهما.

لبَّيا دائمًا طلباته، ملابسه نظيفة مكوية، والطعام الذي يحبه يملأ الثلاجة، وسريره تلمع ملاءته دائمًا.

يذهب إلى الحضانة والمدرسة ويجد أمه أو أباه نهاية اليوم في انتظاره، يشتريان الحلوى ويحابيان عليه، ويأخذانه إلى الحدائق، ويسهران معه آخر الليل كأنه أملهما الوحيد في استكمال حياتهما.

يمتلئ بالكبرياء ويشعر بالفخر تجاه أصدقائه في المدرسة وأبناء عمه وجيرانه، يشعر أنه منزَّه ومميَّز، ليس لأنه الابنٍ الوحيد، ولكن لأن شخصياتٍ مهزومة في الحياة أوجدته، وصلَت تحت قدميه باعتباره الكنز الثمين.

لم يكن يعي شيئًا عن سبب هذا العز الذي ينعم فيه، ولم يسأل

نفسه عن سبب ما تقدِّمه الدنيا، ويشعر أن ذلك حقه لأنه لم يكن يرغب أصلًا في الوجود.

ظل هذان الشخصان اللذان أنجباه يقدِّمان إليه قرابين المحبة التي لا يرغب فيها، ومع ذلك يشعر بعض الأحيان بالسعادة، فيادلهما حتى ولو بالكذب وعودًا بالنجاح، وعودًا بتحقيق أمنيتهما في تأدية رسالتهما.

في لحظاتٍ كثيرة يشعر بصدقهما وهما يحيطانه بالمحبة، ويتفقان على ضرورة تفوقه؛ إذ لم يكن هناك بديل أمام شخصين مهانين سواه؛ لذلك كان ينطق بحياد، ويجوز بفخر، وربما بإصرار: «لن أخيِّب رجاءكما؛ لا تقلقا».

لكن حين قام والده بتطليق أمه شعر بانهيار المملكة، فترك الدراسة وتفرغ للأكل والسهر أمام التلفاز أو وسط أصدقائه، ليس بدافع تلبية رغباته ولكن لقتل الوقت، وربما لشيء آخر لم أكتشفه بعد.

شعر بالمرارة دون أن يدري، فهو البذرة التي خرجت كنبتةٍ خضراء جميلة، نبتة تحتاج إلى الري والرعاية، وفقدت مرة واحدة كل هذا الاهتمام الذي راعته الأرض والفلاح.

امتلأت روحه بالضيق، بالخنقة؛ لملوحة الأرض، لهجران الفلاح ويأسه، ولكن ما ذنب النبتة الصغيرة أيها الفلاح؟ ألم تختر أنت هذه البقعة التي وضعت فيها بذرتك؟!

أضحى تائهًا بالرغم من أن والده وفر المال لاستكمال دراسته، ورغم أن أمه لم تتركه وحده وقامت بأداء واجبها على أكمل وجه، لكن حجرته مع ذلك كانت تشع برائحة الخراء.

دائمًا يشاهد نفسه فاشلًا، فيقوم دون إرادته بالبصق على ملابسه وتقطيع أغلفة كتبه ونثرها في الأركان والتبول عليها.

ترك دراسته وعاش كالميت لا يعرف كيف يستكمل باقي عمره، وظل يتعامل مع الجميع بطيبة، لم يفهم قانون الحياة أو يتعود مواجهة مآسيها، فكيف لطفل بريء النجاة من الحرب التي انطلقت حوله؟!

راوغ بحزن مرير، واستجاب بعض الأحيان لرغبات أمه، وحَقَدَ على والده، وتبدلت مشاعره دون سبب فعطف عليه، ثم في النهاية تكونت لديه عقيدة بأنها سبب بلائه.

كان ذلك كفيلًا بأن يستكمل عمره ضائعًا، لم يكن يعرف ما يخبئه له القدر أو المستقبل، أو حتى معنى هذه الكلمات التافهة، كل ما شغله هو قتل الوقت ببطء كي ينفرد بنفسه ليأكلها أو يبكي عليها.

(4)

دخلت «مريم» مكتب «سعيد» كزبونة تسأله عن الإجراء القانوني لوقف محاولات صاحبة المنزل طردَها، فشعرت بأنها تمتلك الدنيا، دخل روحَها شعورٌ جديد، شعور سميته وأنا ألحظ تغير نبرات صوتها وشعاع عيونها «الأمان».

عاشت مثله حياة هانئة؛ كونها ابنة مدللة وحيدة لأب وأم فقدتهما بعد تخرجها في الجامعة بشهور.

لم تكن غنية، لكنها كانت ميسورة الحال، بإيراد ووديعة تركها والدها في البنك باسمها، وشقة متواضعة وسيارة قديمة.

قررت في ضراوة استكمال تعليمها لتصبح أستاذة بالجامعة تعلم الشباب حب الحياة.

حياتها بسيطة، أحبت مثل كل الفتيات فتية كثيرين وغدروا بأحلامها، ألقوا عليها التهم لتبرجها وانطلاقها، لكنها لم تهتم؛ لأنها شعرت أنها تعرف طريقها.

داست على العلاقات التي تشعر بأنها شاخت ولا تضيف لمشروع حياتها شيئًا.

تتحدث بتلقائية وعفوية تذهل من يسمعها، رغبت في اكتشاف العالم والناس من خلال المزيد من العلاقات، كأن داخل الشعاع الذي يمر بين الناس في الجلسات والأسِرَّة أسرارًا تخفي معنى وجودنا.

حينما تشعر بالخطر في أية علاقة، الخطر على براءتها، على استقلاليتها، على جدرانها التي لا تسمح لأحد باختراقها، تهتز جوانب عينها دون إرادتها وتغادر.

لم تشعر بالثقة إلا بأحضان والدتها، ولا تعرف سبب ذلك، ويجوز أن العلاقات الفاشلة التي كانت تعيشها مع أصدقائها هي ما ألقت بهذا الفهم داخل ذاكرتها.

وربما طلاق والدها لوالدتها وهي طفلة ثم إعادتها مرة أخرى لمنزله، جعل أمها تحتفظ بمخزون القهر والقسوة والغدر من كل الرجال في مستنقع ذاكرتها.

لكن كل ذلك لا يهم، فهي تجري الآن وتنطلق، وتقوم بعمل علاقات سريعة أو طويلة مع شباب وعجائز، وتنساهم بمجرد إخفاق رحيق قلوبهم، وترغب في المزيد دائمًا لري أعماقها المشققة العطشى والمشتاقة إلى رحيق رجل تشعُّ من عيونه الكلمة السحرية التي التقطتها في أول مقابلة لها مع سعيد «الأمان».

حينما رمقت عيونه داخل مكتبه لانَ قلبُها، وقررت بجنون الدخول في قلبه باعتباره أملها في إعادة الثقة المفقودة، دعَمها وقوَّاها،

وشعر أن الدنيا كافأته بهذه المرأة التي راعت ظروف زواجه، وحبه لابنه، واحترامه لزوجته، ولم تطلب الزواج منه قط.

أثناء زيارته لشقتها كانت تكتفي بوميض عينه، لكنها تتفتت إلى قطع صغير متناثرة بعد رحيله، وتنام وحيدةً عاجزةً عن النطق، ورغم زياراته المتكررة خلال عشرين عامًا، لكن الكوابيس لم تفارق أحلامها.

تتركه بعض الأحيان دون أن تدري وتختفي، وتقوم بعمل علاقة سريعة أو طويلة كي تشعر بالسعادة، ثم تنقلب على نفسها وتعود إليه، فتجده كما هو يتمنى ري روحها بمسحوق الأمان المحرومة من طعمه.

شعرت بمذاقه في أحضانه رغم كل الثقة المفقودة، وظلت طوال سنين طويلة وفيَّة لعهدها معه، بينما هو تجاوز علاقتها السريعة، كأنهما في اتفاق غريب لم يبرماه، اتفاق راعته ذاكرتهما حال اقترابهما، ونسيته في اللحظة نفسها عند انفصالهما.

شعرت بقربه أن هناك شيئًا يستحق أن نحياه، ورغم ذلك بمجرد خروجه من شقته والعودة إلى منزله وأسرته، تحس بالبغض والمرارة تجاه العالم وتجاهه.

لازمَها هذا الإحساس طوال علاقتهما، كأنها تعيش داخل عالمين، ولم تتمكن من تجاوز هذا الانفصال إلا أثناء ابتعادهما عن بعضهما.

أثرت علاقتها القوية بجدتها التي كانت تدَّعي أنها ابنة أميرة

مخطوفة من الحرب، في رؤيتها لعالم الرجال.

لكن جدتها ماتت ولا تتذكر إلا دخان سيجارتها ورائحة قهوتها أثناء أخذها في حضنها وهي تحكي لها عن مضاجع الأمراء الذين يتعطرون بالحب.

انفتح الطريق أمام «مريم» فحصلت على الدكتوراه وعملت بالجامعة، وزاد دخلها، وجلست وسط النوادي الفاخرة مندهشة من العطر الذي حكت جدتها عن لونه ومذاقه على أسِرَّة النوم.

رغبت في الاكتمال فتاهت بين الحلم والواقع، وتخيلت أن هذه المشاعر المتدفقة أثناء انتفاض أعضاء الرجال بداخلها، تملؤها بحيواتٍ كثيرة؛ لأنها شعرت خلال قذفهم بصدق نبرات صوتهم ولمعة عيونهم.

دخلت بعمق في كل باب يفتح أمامها، راغبة في اكتشاف المجهول وسط عشرات العلاقات بل قل المئات، وتساءلت أثناء مضاجعتهم: أين تكمن هوية الرجل أو ذاكرته؟ وأملت في سماع أية إجابة، علّها تفهم سر احتفاظ «سعيد» بزوجته وقبوله في الوقت نفسه بوجود حبيبته التي يعبدها على هامش حياته؟!

لم يكن ذلك حبًّا في «سعيد» في حد ذاته، بل كان محاولة لاكتشاف السر المجهول.

في كل مرة كانت تدخل أي نفق تخرج مجروحة من آلام البشر الذين هتكوا ذاكرتها وشوهوها.

ومع ذلك لم تتوانَ عن تكرار التجربة؛ لاعتقادها أن العثور على الأمان يجعلها تتحمل فاتورة ضخمة ثقيلة لا يقدر على حملها أحد.

(5)

شكَّل ظهور «مريم» في حياة «سعيد» بالنسبة لزوجته وابنه وأخيه الوحيد صدمة، وحينما رأيت ذلك في عيونهم وصفتها بكلمة «مصيبة».

بالفعل كانت بالنسبة لهم بلاءً كبيرًا، رغم أنها لم تحتل في اللوحة المرسومة على جدران حوائطهم الواسعة سوى نقطة، نقطة فقط، لكنها أربكت الألوان المتناسقة المتجانسة الموزونة لحياتهم.

أصابهم خلل لم يدركوه، لكنهم شعروا بأن شيئًا حزينًا أو سعيدًا سوف يمر من وسط حياتهم.

قابلها «نور» أول مرة بمكتب «سعيد» الذي عرَّفه عليها باعتبارها زبونة وصديقة حميمة، فارتعب «نور» من المشاعر الطيبة لأخيه تجاه امرأة عرفت قبله عشرات الرجال.

واستعجب لحظتها من اختيارات أخيه الذي رباه؛ إذ لم يكن يعجبه إلا نساء من هذا النوع، نساء عاشرن رجالًا قبله وعلى استعداد دائمًا لمعاشرة غيره، قال لنفسه: «لم يكن أبي أو أمي بمثل هذه الجرأة، فمن أين جاء أخي بهذه المشاعر؟»

والغريب أن «مريم» تفاخرت بذلك، ويشعر كل من يحدثها بأنها عاهرة، لكن «نور» حزن عندما وصفها أحد زبائن أخيه بذلك، ليس تعاطفًا معها، ولكن لأنه لم يبادلها هذا الإحساس، بل شعر مثل «سعيد» بحبها.

عندما أخذها «سعيد» صباح يوم جمعة لتعيش في منزل أبيه وحقله بعض الساعات، عاشت يومًا لا تنساه ذاكرتها التي انتهكتها الحسرة.

شعرت دائمًا بالحب تجاه ألوان الصبح والبراح والزراعات ومياه البحر، توطدت علاقاتها رغم الزمن القصير بأولاد «نور» وزوجته، حتى حيواناتهم وطدت علاقتها بهم كأنهم عاينوا بروحها الساحرة.

عاشت معهم يومًا مملوءًا بالمحبة، شعر به «نور» وأسرته، كأنهم داخل زمن جميل يجب ألا ينقضي، لكنها غادرت وعادت بقوة في المشهد الذي سبب كل هذا الألم.

حتى ابنه «ملاك» عندما شاهدها في مكتب والده أمتلئ بالتفاؤل وتبادل معها النكات، وقالت «مريم» لنفسها: «كان يمكن أن يكون ابني»، تبادلا أرقام الهواتف ومواقعهما وأغانيهما التي يحبانها، ورغم ذلك لم يتحدثا أبدًا بعد ذلك.

أحس «ملاك» أنها عشيقة والده، وأمتلئ بالبغض تجاهه لأنه يفضل امرأة أخرى على أمه.

تعاطف مع أمه ونقم على والده، تصرف خلال فترة طويلة بهذه

الطريقة الغامضة، وشعر الأبوان بتغير طفيف غير مفهوم في مشاعر ابنهما.

مرات كثيرة يرسل «ملاك» لأمه إشارات عن علاقة والده بـ «مريم»، لكنها كانت تبادله أحاسيس غريبة، كأنها تقول: «أعرف وأوافق، ليس أمامي بدائل».

تيقن بأنها مقهورة مجبرة على معاشرة رجل لا تحبه، رغم أن ما بينهما يَشي بغير ذلك، لكن بمجرد خروج والده من المنزل، تتحول إلى كائنَ ودود ومحب، تفتح المذياع وتسمع الموسيقى وتدخن وتجلس في البلكونة وتكلم العصافير وتحلم.

هذا العالم المتوازن بين هؤلاء الخمسة استمر وقتًا طويلًا، الجميع يلعب دوره بإتقان، ويشعر بأنه يتحمل مسئولية تحقيق أحلام الآخرين ودعمها، فالزوجة تستمر في حياتها الرتيبة لتغسل وتطبخ لابنها الوحيد، توافق على الخديعة رغم المرارة؛ لأنه لا يوجد بديل لتحمُّل هذه الساعات القليلة التي ينام فيها «سعيد» داخل شقتها رغم رائحة عشيقته التي تفوح من قلبه.

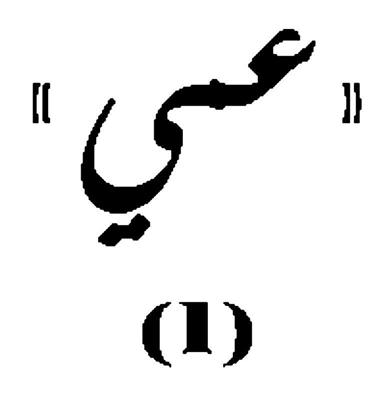
بينما «نور»، ورغم الحسرة التي أمتلئ بها تجاه حال أخيه، اعتبر نفسه غير مسئول لأنه قام بدوره، رباه وعلمه ولم يتركه إلا بعد أن أصبح له دخل مستقر وزوجة، ولم يهتم برأب الشقوق الواضحة في حياته.

واكتفت الحبيبة بلحظات الأمان القليلة التي عايشتها في وجود

«سعيد»، وفككت باقي حياتها في العمل والعلاقات السريعة أو الطويلة.

وأضحت ساحات الجامعة والمدرجات والطلاب بالنسبة لـ«مريم» عالمًا خارجًا للتو من سيرك، عالمًا وضيعًا منهارًا، لا يلتزم بقيم أو معايير، وأجهض حلمها سريعًا بالتحقق في داخله، فتعاملت معه من خارجه، كأنها زائرة، ضيفة ترغب في الهروب من أصحاب الدار.

افتتن «سعيد» بنفسه، وشعر بأنه يملك مفاتيح هذه الدائرة التي يعتبر محورها، وتجاهل «ملاك» كل هذا الاهتمام المحاط به والذي لا يرغب فيه، وانشغل بقتل الوقت.



(1)

داخل كل واحد منًّا مساحة مخفية يعتقد أنها مصدر نقائه، مساحة أشبه بالفضاء الرحب، ربما ورثناها، ويجوز أنها تناقلت في أرواحنا بفعل الطبيعة أو الخبرات البشرية.

هذا الفضاء الذي يحرك مشاعرنا ويجعلنا نحكم على تصرفات الآخرين ويفضح وجوهنا كانطباعات دون إرادة منًّا حيال المواقف المتنوعة.

ماذا يوجد داخل هذه المساحة من مفاهيم أو أفكار؟ ولماذا نحزن أو نسعد كلما لامسنا هذه المفاهيم التي تملك مقاديرنا وقراراتنا؟ وما صحة هذه الأفكار وحدودها في اختياراتنا؟

حاولت كثيرًا التسلح بالمعرفة قبل دخولي فضاءات «سعيد» وابنه وحبيبته وأخيه وزوجته، ماذا فعلوا، وأي ذنب ارتكبوه تجاه بعضهم أو تجاه الآخرين أو تجاه أنفسهم دفَعَهم لتحمل هذا الثمن؟

راودتني أفكار كثيبة وربما إيجابية عن معنى ربط مصيرنا بالآخرين، نعم كانوا يرغبون في مواصلة حياتهم، ومع ذلك برروا سيرهم في الطريق الذي اختاروه بقرارات الآخرين في مواجهتهم والتي أجبرتهم، أو هكذا تصوروا، على الفراق أو الحسرة.

كان الشيء غير المفهوم هو، لماذا يدفع ملاك؟ فهو صغير، وليست لديه خبرات، هو لم يؤذِ أحدًا، فلماذا كافأته الدنيا بالخروج من المملكة؟!

هل يدفع فاتورة «سعيد» أم «أمل»؟ أم أن هناك حياة أخرى عشنا فيها، أو سنعيش وندفع ثمن وجودنا مقدمًا أو مؤخرًا؟ وما رحلة حياتنا إلا محطة في هذا الأثير الذي لا نعرف نهايته؟!

ماذا فعلوا لتعاقبهم الدنيا برذيلة الفقد؟ كانت طموحاتهم في الحياة بسيطة، ومع ذلك لم تتركهم في حالهم.

أَجَرَحُوا براءة الكون؟ أَحاولوا استكمال الملهاة التي لم يرغبوا في العيش بداخلها؟ وأي قوة دفعتهم لمواصلة خطواتهم غير المستقرة في هذا العالم المختل؟

أهو الثمن؟ وأي ثمن؟ ومن حدَّد مقداره؟ ولماذا يجب دفعه؟ وهل يدفعه الجميع، أم يختار القدر الساقط أسوأنا أو أفضلنا ليتحملوا وحدهم ضريبة خطايا لم يرتكبوها؟!

كانت الإجابات كلها تأتي ضمن كلمات غريبة ترددت في ذهني دون وعي: «القدرة والساق»، علامَ تدل هاتان الكلمتان الداعرتان

في هذا العالم المهتوك؟ وأية معايير يمكن أن يضعها بشر ضعفاء مهانون كي يستحقوا عقابًا لم يتوقعوه؟!

هل خانوا ذاكراتهم أم تجاوزوها وسخروا منها؟ هل انتحلوا شخصياتٍ وأدوارًا أخرى خلاف ما كان مرسومًا لهم؟ ماذا فعلوا؟.

72

(2)

كان «نور» يستمتع بحياته وحقله وأسرته، ولم يرغب في المزيد بعد قيامه بدوره تجاه أخيه وتركه على أول الطريق، هذا الفهم لتاريخه، جعله يخرج كل يوم حاملًا معوله، ليحرث الأرض ويبذرها ويرويها، ويتندر مع جيرانه، ويناطحهم في غلَّة الأرض، وعُشر الجاموسة.

حينما يعود آخر اليوم إلى داره، يتربع على الطبلية بين أبنائه، ويأكل ما لذ وطاب من الخبز والخضر ويتكرع.

يمتلئ بالزهد والأمل، ويستغرب تطلعات أخيه التي لا تنتهى، أخوه الذي وقف بجواره حتى أنهى تعليمه، وافتتح مكتبه، وتزوج بمن يرغب، وعاش سعيدًا مع أسرته، لم يكن ذكره يمثل أي حزن، أو هكذا تصور، بل إن تذكره يعتبر مفخرة، ليس لاستقرار حياته فقط، بل لأنه قام بدوره تجاهه، وعلى أكمل وجه.

ومع ذلك، وفي المرات القليلة التي يقابله فيها، يشعر بوخز في ضميره، في أعماقه، في المساحة التي يعتقد أنها ملكه وحده، المساحة البيضاء الطاهرة بداخله.

لم يتكلم «سعيد» قَطُّ عن هذه الغُصَّة التي لازمته هو أيضًا عند رؤية أخيه، لم تكن شبيهة بغصة «نور»، لكنها كانت مريرة مصحوبة بالأنين الشبيه بالبكاء.

لم يحاول قَطُّ تفسيرها، مع أنها ظاهرة للعميان، يحدث نفسه دائمًا بصمت أشبه بالهمس: «نعم استولى على تاريخنا المشترك، على ذكريات الأب والأم وملابسهما، نعم غسل جثتيهما ووقف وحده وسط المعزِّين يتلقي عزاءهما».

لم يتفوه لسان «سعيد» ولو لمرة واحدة بذلك؛ لأنه يعلم أنه كان صغيرًا ولم يشارك أخاه أية مسئولية أو التزام، لذا فهو يُعتبر وحده السيد في هذه المملكة، بينما «سعيد» مجرد فترة مؤقتة، سيأخذ الدعم ويرحل إلى عالمه.

من حدَّد هذه الأدوار لكل واحد منهما؟ من فصَّل قلوبهما البريئة ليملأها بهذه المهاترات التي تجعلهما حينما يريان بعضهما ولو صدفة يشعران بغصة أشبه بوخز الخناجر.

كانا يحاسبان بعضهما حساب الملكين دون أن يتكلما في شيء.

يقول «نور» لنفسه أو لأخيه بنفس همس «سعيد»: «لم أطمع في شيء، الأرض والمنزل والذكريات وبطاقات الأب والأم وعقودهما موجودة بالكامل، لم أتصرف في شيء، ويمكنك أخذ نصيبك في أي وقت».

فيرد «سعيد» بأسى على نفسه أو عليه: «نصيبي؟ وهل يمكن

تقدير نصيبي؟ هل حقي في المشاعر أو الماضي المفقود يُقَدَّر بثمن؟»

لم يعرف أحدهما ولا حتى أنا، عن أي صراع يتحدثان، لكنه كان وخزًا لخناجر تدخل وتخرج في الأحشاء ولا تسبب إلا الألم، والمزيد من الألم.

(3)

هذه المساحة البيضاء التي ملأوها أو هتكوها أضحت الشيء الأخير الذي تلجأ إليه «أمل»، اعتقدت أن زواجها سيمكنها من تطهيرها، من تزمت أبيها وعلاقات أمها المتعددة.

شعرت بالمرار مثلما شعرت أمها حين رغبت أن تكون «نجمة سيما»، فجرَّها أبوها من شعرها إلى القرية وزوَّجها لابن أخيه عنوة.

بعد شهرين فقدت أمها عقلها، فعاد زوجها بجسدها إلى المدينة، واستأجر شقة وعمل في السوق، وأنجب منها «أمل» وأختًا كبرى عملت في أحد الفنادق واستقلت بحياتها بعد رحيل أمها وتركت أختها الصغيرة وحيدة بصحبة والدها وسط البركان.

لكن «أمل» لم تيأس، وأنهت تعليمها بأقصى سرعة، وعملت ممرضة في مستشفى قريب، ولم تهتم بالمرتب أو الصحبة، كان كل أملها أن تخرج من سجن هذا الرجل.

حين رآها «سعيد» تمشي في الشارع وحيدة، نادتْه في همس لم يسمعه غيره، فسار وراءها حتى منزلها، واتفق مع والدها على كل شيء.

لم تعترض، بل كادت تموت فرحًا، وانتقلت إلى عشها الجديد مبهورة من طاقتها التي جرَّتْ كائنًا «كامل مكمل» إلى حظيرتها.

احتاجت بشغف إلى جحر «سعيد»، وهو تمنى سماع صوت كائن آخر يؤنسه وحدته.

تعاشرا واكتملا، وأصبحت تشعر برحيق الأمان الذي لم تتذوقه قَطّ.

تحسست رقعتها البيضاء، وفضاءها المخفي، وشعرت بأنها يمكنها غسله وزرعه، علّه ينبت ورودًا وأزهارًا، وبالفعل كافأها القدر؛ لأنها أنجبت ابنها الوحيد «ملاك».

ملأ حياتها بالسعادة وشعرت أن تحت هذه السماء مكانًا يمكن أن يكون مأواها الأخير.

أعطت حياتها كاملة لوليدها الصغير، ولم تهتم بشيء بعد رحيلها من منزل والدها إلا بالطفل والزوج.

شعر «سعيد» بامتلائه برضا السماء التي أنعمت عليه بهذه الأسرة، نسي أخاه وأمه وأباه وذكرياتهم المشتركة واندمج في عالم خبايا المحاكم والملفات والقوانين.

توطدت علاقاته دون إرادته مع المخبرين واللصوص، لكنه لم يندمج معهم وظل يتعامل معهم كأدواتٍ لتحقيق طموحات زبائنه الذين يكافئونه بالأموال والعطايا.

لكن سعادته في العلاقات التي يجنيها مع بعض زبائنه فاحت منها معانٍ أخرى، معان لم يشعر بطعمها إلا حين دخلت «مريم» حجرة مكتبه وجلست أمامه.

تحرك دون إرادته في اتجاهها خطواتٍ كثيرة أبعدته عن زوجته التي لم تهتم بهذه الأحداث التي تسمعها أو تنكرها؛ إذ لا يهم كل ذلك، ما دام «سعيد» يعود آخر الليل إلى جحرها.

فلماذا رفضوا مرة واحدة كل هذا الأمان الذي أنزله القدر عليهم في ليلة لا يتذكرونها؟

ومن وضع في فضائهم هذا الهراء الذي فقدوا به هذا العالم المفعم بالحنان؟

كنت أشعر بروحه وهو يبذل مجهودًا رهيبًا كي لا تشعر «أمل» برائحة «مريم»، لدرجة أنه يذهب كل يوم إلى المكتب ليستحم قبل أن يتوجه إلى منزله.

حين لسَّنت إحدى جارات «أمل» على زوجها وسخرت منها، شعرت بالمهانة، حاولت أن تسترجع بعض الجمل التي قالتها الجارة: «مرافق عليكي من سنين، وإنتي عاملة نفسك عبيطة، اصحي وفوقي يا أم ملاك».

عندما دخل آخر الليل من الباب، وقفت وسط الصالة كالمجنونة، وطلبت الطلاق، فنطق الكلمة، كأنه يرتاح من حمْلٍ ثقيلٍ رفعه وحده لسنوات، وردد والبكاء يملأ عينيه: «إنتي طالق».

ركع على قدميه أمامها وحكى بالتفاصيل عن عطر حبيبته الذي يرفض مغادرة قلبه، كان يمكنها أن تغفر كل شيء وتنسى، لكن نبرة صوته جعلتها تشعر بالهوان.

جرحها وآذاها بقلب قاس: «نعم شعرتُ بالسعادة في حضن امرأة غيرك»، هكذا قال دون أن ينطق تلك الحروف.

انتفضت وصرخت وقذفت التلفاز بفازة الورد، وأصرت على قرارها، وبالفعل ذهب إلى المأذون ووقّع على الورقة.

في الليلة الأولى التي نامت فيها كمطلقة بعد عشرين عامًا من الزواج، شعرت بأنها مسحوقة ومسحوبة من رقبتها بحبل ملفوف على جسد رجل قبيح.

كلما تعبت أو حاولت الراحة ولو قليلًا ضربها الرجل على ظهرها بسوطه، فتفزع وتجري وراء حصانه الذي ركبه في منتصف الطريق كي يستكمل غزواته.

رغم أنها كانت حاملًا، لكن الرجل لم يرحمها، ظل يلاحقها رغم أنه كان يسير أمامها، وهي ترضخ في ذل كأنها عبدة مقيدة في سلاسله الثقيلة.

حين وضعت طفلها وهي تسير مهانة وضعيفة خلفه أو أمامه، حملت المولود بين ذراعيها حتى لا تفعصه أقدام الحصان أو يخنقه غبار الطريق، واستكملت جريها وراء الرجل لتتلاشى ضرباته المتواصلة، وحين رغبت في تقبيل وليدها الذي ضمته إلى صدرها،

شعرت بأنه قطعة ميتة تُخْرِجُ روائح كريهة، ألقتها على الأرض في ذهول، وهرولت وسط الغبار وشدت الرجل من رقبته فوقع على الأرض فقطعت لحمه وهرست عظامه.

(4)

أعطت الحياة «مريم» كل شيء، شقة ورصيدًا بالبنك وسيارة وعملًا تحلم به نساء كثيرات في عصرها، فماذا كان يحوي فضاؤها وجعلها ترتبط بهذا الشخص المعقد المتزوج الذي لا يعرف ماذا يريد؟!

أيجوز أن حادثة أمها التي غرقت في بئر أعماقها هي ما رسم لها حياتها؟ نعم تزوجت أمها والدها وهي تطير من الفرح، وفي العام الثاني بعد ولادتها اكتشف والدها ورقة بالصدفة في دولاب ملابسها، تؤكد أنها متزوجة «عرفي» من شخص آخر.

عندما واجهها الزوج، ردَّتْ ببراءة أنها تزوجته قبل معرفته، وحينما شعرت بالنار تكوي صدره تركت منزله وحملت ابنتها الرضيعة وذهبت إلى بيت والدها.

جاءها زوجها وأعطاها الوثيقة، واعتذر عن الظروف التي أدت إلى وقوعها في يديه، لكن مشاعر المرأة تغيرت تجاهه، أصبحت لا تطيق رؤيته، وتهيأ لها أنه شيطان، رغم أنه كان يزورها كل يوم بمنزل والدها ويرسل لها الطعام والورود.

لمدة ستين كبرت «مريم» وسط منزل جدها وجدتها، وبين أحضان أمها المجروحة، لماذا شعرت هذه المرأة بالجرح؟ ماذا فعلت؟ تزوجت بشخص أحبه، رفضت النوم تحته إلا بوثيقة موقَّعة من شاهدين، وعندما رفض التقدم لوالدها رفضت استكمال العلاقة، وطلبت منه أن يرمي يمين الطلاق وسط الشارع، أكلّ ذنبها أنها لم تحرق الورقة؟ أيكون هذا جزاءها؟

ولكن ماذا فعل الزوج؟ هل أخطأ حين عاين الوثيقة؟ حين سألها عن محتواها؟ لا أدري، ولكني أعتقد أنه خدش بكارتها، براءتها، خدش الفضاء الرحب في أعماقها، كنزها، مساحتها التي تخصها وحدها، نعم كانت امرأة محافظة وتدَّعي بصدق أنها لم تنظر إلى أي رجل خلاف زوجها، وهل كان حبيبها الأول سوى زوجها؟

بعد عامين عادت لبيت والد «مريم» تسحب في يديها ابنته، وعاشت مستكينة حتى رحلت معه إلى المدافن، وتركت «مريم» الوحيدة تواجه الحياة.

لكن ابنتها خرجت من تحت عباءة الدنيا غير عابئة بمثل هذه الخرافات، تمردت على الرجال بأصنافهم وأنواعهم، أغوتهم وشعرت في أحضانهم بالحب، وفي لحظة تختارها هي، تشعر بالقرف من رائحتهم.

هل هذا ما كان يحدث أم أنها كانت تمل في نهايات العلاقات من تكرار نفس الكلام، نفس الأوضاع، نفس الموسيقى والألوان، فتهرب منهم كمجنونة؛ لأنها ترغب في الانعتاق والانطلاق إلى عالم

لم تطئه مشاعرها، عالم لا توجد فيه أوراق زواج عرفية أو رسمية، عالم مبني على علاقات لا تعرف توقيع الشهود؟

رغم كل ذلك ارتبطت بـ«سعيد» غير عابئة بزواجه أو تطلعاته أو فشله، شعرت أنه يقدم لها شيئًا تفتقده، شيئًا يروي أعماقها، ويزيل تناقضاتها وتمزقاتها بين عالم والدتها وعالمها.

حينما كانت تشعر بأن حياته ضاقت بوجودها، تبتعد وترتبط برجل آخر، وحين تحِنُّ إليه تتصل به، فتجده في انتظار سماع صوتها كأنه طوق النجاة، كان «سعيد» محقًّا عندما وصفها في ليالي وحدته الطويلة بأنها طوفان يجتاح العالم، طوفان يفجع مشاعرها ويجعلها تغير طريقة سيرها، سيارتها، نوع سجائرها، ضحكتها، نبرات صوتها، طوفان يجعلك تتمنى الموت بداخله دون ندم.

حينما رفعت زوجة «سعيد» سماعة التليفون وهددتها بحرق وجهها بماء النار، شعرت بالخوف لأن جمالها ورونقها هما أثمن ما خرجت به من الحياة.

اتصلت بـ«سعيد» فتهرَّب منها، وأبلغها بأنه أغلق مكتبه وحُرِمَ من رؤية ابنه بعد صدور أحكام بحبسه، لكنه لم يتوقع أن تتركه وحده يواجه مصيره.

بينما شعرت «مريم» من نبرة صوته أنها النهاية، فهي لا يمكنها أن تستمر في مثل هذه العلاقة التي لا تقدم لها شيئًا من أجل مستقبلها، عشرات الرجال والنساء، بل المئات الذين عرفتهم كانوا مفيدين في

اكتشاف طريق حياتها.

عمَّ كانت تبحث هذه المرأة وسط هذه العلاقات؟ وماذا تضيف إليها؟

كان النموذج المرسوم في أعماقها صعب الحصول عليه أو نيله، لكنها لم تيأس أو تعترف بخطئها من تكرار تجاربها، فهل فعلًا أخطأت، أم أن المساحة البيضاء التي بداخلها، والتي تخصها وحدها، سرها الدفين، أشارت لها دائمًا إلى طريق آخر، طريق كانت تأمل أن تجد فيه نصفها الذي مات ليلة عودة والدتها إلى منزل أبيها؟

اتكأت على كرسيها في بلكونتها الواسعة وأشعلت سيجارتها وفتحت صفحتها على النت، وموبايلها، وبدأت في إرسال الرسائل لأصدقائها: «من يرغب في قضاء أسبوع بالجنة؟»

وقررت في قوة لم أشعر بها بين البشر أنها ستختار الرجل القادم من أجل رسالة تلقاها وتُشعرها بالأمان.

(5)

كنت أدخل في روح «ملاك» الذي لم تتلوث فضاءاته بالحزن أو الألم، وأشعر رغم ذلك بالقهرة، لم أكن أدري لماذا؟ كل ما أفزعني، أنني كلما سرت داخل كنزه المخفي وجدتني أبكي دون سبب.

هو عاجز حتى عن نطق الحرفين اللذين لا يعرف غيرهما، فأي قاتل ألقى بقذيفته في قلبه ليصاب بهذا العجز ليرفض المقاومة ويغادر وحيدًا دون نظرة من أب، أو دفء من عيون أم أو ابتسامة ودودة من أخ أو حبيبة؟

رغب في رؤية السماء والطيور المحلقة وسط أنغام الموسيقى، لكن قلب «سعيد» المطعون كسر عوده وألقى بأوتاره في القمامة.

من يروي الآن روحه العذبة ويرمم عظامه اللينة، ويوقظه من النوم كي يلحق بباص المدرسة؟

لم يكن داخل فضائه أية نقاط سوداء أو بقع تستحق أن ينال هذا العقاب، ومع ذلك أفجعته الدنيا.

أضحى حمله ثقيلًا رغم صغر حجم ذاكرته، تلوَّى من الألم وهو يصارع وحده أشباح الليل المخيفة وهي تملأ أعماقه بشرور لم يعاينها

خلال حياته القصيرة.

قال لنفسه وهو يقترب من النهر: «لماذا أنتظر قرارًا من أحدهم؟ لماذا أربط مصيري بقرار من المفروض أن يأخذه والدي أو لا يأخذه؟»

كان رقيقًا وهو يغني للشجر والسماوات المفتوحة، عذبًا وهو يلقي أبيات قصيدته التي لم تكتمل، ورغم ذلك أفجعته الدنيا وأجبرته على القرار الذي جعلهم جميعًا غير قادرين على مواصلة حياتهم.

حين اقترب من الشط حدَّث نفسه، وغنَّى أغنيةً غريبة سمعتُها بشغف، ولا أتذكر كلماتها، لكنها تعني: «أنا لم أرغب في الوجود ولم أهتم بمستقبلي، فلماذا إذن لا أفعلها، تجرأْ وألْقِ بنفسك وسط المياه، ليس هناك ما يستحق، ليس لديك شيء تخسره».

الشيء الذي أحزنه هي الخيالات التي جاءته في الحلم لرجل شبيه بأبيه وامرأة شبيهة بأمه، وقفا وسط سوق مملوءة بالباعة والمشترين يصرخان في وجوه بعضهما، والبشر من حولهما تضحك وتقهقه عن آخرها لعرض رجل وامرأة كل تاريخهما المشترك بدعارة وقبح ليس لهما مثيل.

رغبا في بيع فضائحهما، لكن الناس انفضوا عنهما دون أن يدفعوا مليمًا واحدًا، وحينما رأيا وجه ابنهما، لم يشعرا بالخجل، وأمسك كل واحد منهما بإحدى يديه، وسارا إلى حجرة بعيدة مهجورة فوق

سطوح عالٍ.

دخلا الحجرة، ووضعاه على سريره، وعاقرا بعضهما على الأرض بذل وهوان وربما بغضب، وحينما رآهما فوق بعضهما دون قصد، أمسك كل واحد منهما سكينًا طويلًا وذبحاه، وألقيا بجسده من فوق السطوح إلى الفضاء.

عند تلك اللحظة اتخذ قراره وألقى بنفسه وسط أمواج النهر الهادرة.

هل شعر «سعيد» بقلبه النابض وهو يغرق؟ هل شعرت «أمل» بوليدها وهو يتلظى وسط المياه باحثًا عن بصيص نور أو فقاعة هواء أو نبرة صوت حتى ولو مبحوحة؟ هل شعرت «مريم» بعذاب الملاك الذي غاب لحظة اكتشافها سر الحياة؟

كانت جثته الملقاة على الشط وسط المجهولين منتفخة وغريبة، لكن وجهه كان يضحك، فهل مات فعلًا، أم أن «سعيد» تخيل ذلك وهو يتسلم جثته من المشرحة؟!



(1)

هل نحن أمام محطة جديدة في حياة هؤلاء الأبطال الذين تركوا أنفسهم وسط النار لتنخر رقعتهم البيضاء بأخرام وثقوب لم يتمكنوا من رتقها؟

هل يستكملون حياتهم وذاكراتهم المهتوكة تختبئ خلف أسوارهم وتنام كعاهرة متمرسة تستقبل كل الملل، لكنها لا تتذكر إلا الوجوه المستذئبة كي يفقدوا الوميض الصافي الذي لازمهم وركب معهم في أول محطة بطريق الحياة.

دهسوا ما تبقى لديهم من أمل، وغرقت مشاعرهم في فوضى لا مثيل لها، وأصبحت التوهة عنوانًا ليومياتهم.

الآن لا يهم نوع المقدمات التي أدت إلى هذه النتائج، أو هوية واضعها؟ فمن أدخلهم أو وضعهم في هذا الطريق؟ لا أدري، ولا أفهم لماذا دخلت هذه العلل إلى قلوبهم.

كانوا مولودين بضمائر مغايرة، بأرواح منقوعة في البراح، لكن طريقهم الطويل حمَّلهم بمفاهيم جديدة حول طعم المأكل، ونوع الملبس، ودخل الأب، وسلوك الأم، ومفاهيم أخرى فرضت عليهم وأعادت تشكيل وعائهم الذي كان أبيض، ثم بدأت خلطة الألوان تتداخل حتى وصلوا إلى هذا القاع.

لم يتساءلوا طوال الرحلة عن السم الذي تجرعوه، أفقدهم بتروٍّ وعلى مدى محطات كثيرة براءتهم، وأصبحوا حيارى، أغرابًا حتى عن أنفسهم.

كنت أجري داخل عروقهم أبحث عن مصدر أو سر الهزال الذي ملأ حياتهم، علَّني أفهم، لكن أحلامي شيء والطاحونة التي دهست أرواحهم لها قانون آخر.

عقدوا الحَبَّات على رقابهم، وشدوا الحبال، لتتدلى أجسادهم فرادى، مقهورين مغيبين عاجزين حتى عن نطق نبرة الحروف الصافية التي سمعوها عند ولادتهم وصعودهم إلى القطار، عاجزين حتى عن السير، كأنهم موتى معميون عن موضع أقدامهم التي حملت أجسادهم كل هذا العمر.

تحايلت ذاكراتهم عليهم كي يتجاهلوا دورهم في العطاء، دورهم الذي خُلقوا من أجله، وتواطأت مع دوافع المبغضين الذين ملكوا سراديب الظلام على مر العصور وسعدوا بدورهم في التشفي وإذلال الناس.

كنت أكذب على نفسي لأرسم صورًا لهم تتعلق بذاكرتي، بينما هم حلموا بالعيش في السعادة والسلام والضحك من القلب والاستمتاع بالبراح، لم يكن يهم أحد منهم ما يجري في العالم، أو ما يجري للآخر، كأن التمتع بيومياتهم إعلان لبراءتهم، وإدانة للآخرين الصامتين الذين عجزوا عن مواصلة الحياة، فهل أجرموا لهذه التمنيات؟ لا أعرف، كل ما أعرفه الآن أن عيني مصابة مثلهم بغشاوة تفقدني رؤية الحقيقة.

ارتفعْ قليلًا أيها السقف، ارتفعْ أكثر كي أشعر برائحة الخرابة التي يرتعون فيها وينامون، ولا يدرون أي مصير مظلم ينتظرهم، ارتفعْ أكثر علّني أعثر على نقطة ضوء أو بارقة أمل تعيدهم مرة أخرى إلى أسمائهم التي ولدوا بها.

لكن السقف انخفض، وتقوست ظهورهم، وانحنت، ورغم ذلك قاموا بذل، وربما بفخر، واستمروا في حياتهم المرسومة يتجرعون المرار، آملين في الوقت نفسه في تشمم رحيق النهر الذي لا ينضب، وكلما زادت مقاومتهم تقهقروا ودُفنت رءوسهم في الوحل.

كأن الرحلة التي ركبوا في محطتها الأولى لم يكن من الطبيعي أن تقودهم إلى هذا المصير، إلى هنا في محطة الوداع، ووسط الخرابة.

تساءلت وأنا أنظر إليهم: «من هؤلاء؟» لا يمكن أن تكون هذه «أمل» التي كانت تعيش كالملكة في شقتها مع ابنها وزوجها، أين هالة «مريم» الحرة التي خرقت ناموس الكون؟ وكيف خدع الدهر

«نور» فأوهمه بأنه صان الأمانة؟

كنت أمشي داخل عروقهم مستبيحًا براحهم أو خنقهم لأخلق من نبرات أصواتهم عالمًا مبنيًّا من الحقيقة أو الغش.

تظاهرت أمام نفسي بإظهار خباياهم كي أكتشف علاجًا لأرواحهم المهزومة وأطهِّر مخزن آلامهم، لكن أمنيتي كلها منيت بالفشل.

كنت أنظر إلى «سعيد» مدهوشًا وهو يهذي داخل المحكمة التي سلَّم نفسه إليها بعد غرق ابنه وطلب من القاضي أن يقوم بإعدامه، الجميع فتح فمه محسورًا أو متشفيًا في رجل كان يحمل روح العالم في أحشائه، وفجأة انطفأ كل شيء داخله، اندهشوا كعادتهم ولم يشعروا بعذابه الذي أخفاه في قاع مركز التمييز ومدينة النسيان المخفية بأعماقنا.

(2)

بارت «أمل» بكل معنى الكلمة. نعم، فما فائدة الأرض بعد قلع زرعها أو حرقه أو حصاده؟! لا شيء، لا معنى لوجودها دون شجرة وارفة أو حقل ذرة أو سنابل قمح أو غيط خضار، وهل يمكن أن تكون للأرض فائدة غير عطائها؟ لا أدري، ولكن هكذا أضحى حال «أمل»، لا شيء لديها سوى مخزون الحزن والألم.

لكن الأرض البائرة تجد أغرابًا أو غجرًا يستوطنونها بعض الأيام أو الليالي ثم يغادرون، هكذا تبدَّل عليها زملاؤها في المصحة، في البداية بدافع الشفقة وأخذ العزاء، ثم تطورت الشفقة إلى عطف، وفي ليالي البرد كانت أجسادهم مادة خصبة لتخليصها من الحزن.

لكن الكوابيس لم تفارقها، فدائمًا ما يأتي «سعيد» وأبوها وأختها وأمها كي يجرُّوها من شعرها وسط الشارع، أو يلقوا على رأسها الجاز لتحترق، لم يكن يغيثها إلا «ملاك»، فرغم موته، لكنه لم يفارقها، فمن يحِنُّ على الأرض سوى زرعها، نبتها الأخضر الذي مات دون شعوره بطعم الحياة؟

كانت «أمل» تأمل بزواجها التخلص من ذكريات القهرة، حاولت ملء ذاكرتها الجديدة بصور ورسومات وموسيقى مبهجة، علَّها تردم على الماضي الذي عاد في ليلة مظلمة ودون موعد.

لكن القدر وقف لها بالمرصاد، فرغم أحلامها البسيطة وعدم اندماجها في حياة جيرانها أو زملائها، أو عدم تعريتها خارج حدود شقتها، فإنه لم يتوانَ كي يلابطها ويجعلها تفقد بتطلعاتها كل أحلامها.

أحلامها بالاستمتاع بالحياة، بحضن دافئ في سريرها مع رجلها الذي تصورت أنه ملاذها، بابن تملأ روحه بقصصها وذكرياتها، بمنامة آمنة تأكل فيها وتشرب وتدخن وتتلذذ بالنميمة على المارَّة والجيران، فهل كانت هذه الأحلام مستحيلة حتى تفقدها؟

لا أدري، لكن عقلها طار لقيام «سعيد» بتطليقها واعترافه بحبه لـ«مريم»، فتصورت أن تعذيبه وحرمانه من رؤية ابنه، ودعم خصومه سيوقعه في الفخ، وهكذا دخلت الحلبة لتغذي روحها حتى حُكم عليه بالحبس.

أدَّت مطاردة «سعيد» من قِبَل البوليس إلى رضائها والنوم في شقتها مرتاحة البال متشفية في الغدر برجل امتهن كرامتها وسط البشر الذين لم تهتم قَطٌّ بانطباعاتهم.

عندما غرق «ملاك» ورأت وجهه الضاحك بالمشرحة شعرت بالغبن، انكفأت على نفسها كأنها مغدورة ومَنْسِيَّة، ضاقت حياتها وتمنت الموت، ولولا زيارات زملائها إلى شقتها ليتشفوا فيها، أو يدعموها، لأصبحت مثل الأرض البوار التي تحولت إلى مقلب زبالة.

اعتادت ممارسة الجنس مع الأغراب وعابري السبيل، تجاهلت تلصص الجيران على صراخها، ولم يفهم أحد أنها كانت تصرخ ليس من اللذة ولكن من القهرة، كانت تئن وتبكي: «آه.. آه»، تنادي بكل ما أوتيت من قوة كي تعزّي نفسها في ضياع ابنها وزوجها من بين يديها.

لكن الرجال الذين ينامون فوقها يهدرون، متعجبين من قوة امرأة مقهورة على إعطائهم كل هذا الإشباع.

أضحت المصحة والمنزل والشارع مرتعًا لاصطياد زبائنها الباحثين عن الأمل أو الألم، لا يهم؛ لأن المهم بالنسبة لها هو نسيان عالم «سعيد» وابنه والردم عليهما بوجوه وروائح جديدة.

الغريب أنها لم تفقد سطوتها فقط، بل فقدت كل ما يلزمها كي تحيَى كامرأة فاضلة، لدرجة أن الجميع وصف «خرية» زوجة الفوال العاجزة الكفيفة التي تفتح منزلها للدعارة بأنها أفضل منها، ليس لشيء إلا لأن «أمل» لم تتمكن من إتمام رسالتها.

نعم رسالتها كامرأة وحيدة في هذا العالم، كان يجب عليها أن تحمي منزلها المهترئ وزوجها الخائن كي تستكمل تربية ابنها الفاشل الذي غرق في ليلة موحشة.

حتى لقاء أخي طليقها «نور» كان مجرد إعلان عن رائحة الخرابة التي يعيشون فيها، فيوم ذهابه إلى شقتها ليسألها عن مكان أخيه معتقدًا أنه قد يلجأ إليها، حتى ولو بالخطأ باعتباره طليقها الفاقد

هوية وجوده.

قامت مندهشة ورحبت بحضوره، لم تهتم بفقدان العقل معنى الفضيلة، ولاكت كغانجة وخلعت ملابسها في عهر، واقتربت منه ولامست جسده بنهديها، وشدته إلى السرير وفتحت فرجها ونادت عليه.

نظر «نور» إلى جسدها العاري وتقطعت أوصاله باحثة وسط تاريخه عن رحيق امرأة تبغي أي رجل يشفي آلامها، لم تسعفه ذاكرته فتصلب مكانه، لم يتحرك، وصوَّب عينه على فرجها العاري.

تقلبت على السرير بقلب ميت وصرخت كي يغيثها هذا الرجل الذي يدَّعي أخوة طليقها، لكنه وقف مذهولاً متجاهلاً روح امرأة تصرخ من الحرمان، تصرخ على أي شخص حتى ولو من خارج دائرة هذه الحياة.

حين تجاهل نداءها المتكرر قامت مفزوعة وألصقته بالحائط لتلتهمه كقواد يسلب عرق النساء الدواعر على الدوام.

نظر إليها في جنون محاولاً منعها من اغتصابه، لكنها صرخت وصرخت حتى التمَّ الجيران ليغيثوها من طمعه في شرفها، أحاطوا بها في شفقة، وفكوا يديها عن رقبته، وزأرت كذئبة وقطعت لحمه بأظافرها.

أيام طويلة لم تعد تتذكرها، تلفُّ وسط البيوت تبحث عن شيء يعيد لها هويَّتها، لكن في ليالي الوحدة والبرد كانت ذاكرتها تتفتت،

ومع ذلك قاومت القدر اللعين، أو استجابت لتحرق كلٍ ماضيها، وكل بقايا وروح الملاك الذي كان سبب وجودها، لعلّ الوقائع الجديدة والوجوه التي ترغب في التعرف عليها تنسيها الحزن والألم على هدم مملكتها وغرق ابنها، فهل خفف القدر عنها، أم بلاها؟

(3)

لم تتصور «مريم» بعد هذه العلاقة الطويلة أن ينساها «سعيد»، لم تسمع صوت قسوته وهو يطرد ابنه من مكتبه لانحيازه لأمه؛ لذا لم تتوقع أبدًا أن يخرجها هي الأخرى من حياته.

كيف تصورت هذه البريئة أنها أغلى من زرعه الذي خُلق من أجل أن يرعاه، ومع ذلك ضحى به لسبب لا أحد يعلمه أو ربما لظروف قاسية لم يتمكن من مواجهتها، فخسر كل شيء أو هكذا تصور؟ فما معنى الاستمتاع بالحياة ما دام كل ما يسبب البهجة غرق في ليلة سوداء؟!

لم تضغط عليه بعد الحكم بإدانته ليتزوجها أو يعيش معها، لكنها لم تتحمل أزمته وهربت هي الأخرى من حياته التي تحولت إلى جحيم.

قابلته مرة واحدة أثناء هروبه ولم تشعر برحيقه الذي كان يحيطها بالأمان، شعرت بأنه فقد أغلى شيء تمتلكه روحه، لم تتوانَ في البعد عنه، وتصورت كعادة علاقتهما أنها فترة مؤقتة ستمرُّ ويعودان إلى بعضهما.

لكن القدر أغرق الملاك، فتاه عقله ودخل المصحة، وتعاطف معه الجميع، حتى إن المحكمة التي انعقدت لإعادة محاكمته أعفته من العقوبة لمرضه، نعم تعاطفوا معه ليس بدافع الشفقة ولكن بدافع آخر، ربما يكفيه ما ناله من عقاب.

زارته مرات عديدة في المصحة ولم يتعرف عليها، وظل ملازمًا لسريره يتحدث مع طيور أو غربان تطير من حوله، يلاغي طيف ابنه في رقة ويهمس باسمه في وجودها كأنه يطعنها.

تركت حجرته وغادرت متأسية، وتحولت حياتها، نعم فقدت بريقها، سماتها، ما يميزها عن سائر البشر، فقدت اسمها الذي ولدت به، كأن رؤيتنا لكائن بشري مهزوم سببٌ كافٍ كي نتساءل عن مغزى وجودنا.

عاودتها أحلام لم تتوقعها، وحضر وجه أمها المحزون منحورًا من البكاء وطاف حولها، نام بجوارها على السرير، ونظرت «مريم» إلى جسدها المطعون برعب وهو ينزف على وجهها، كانت أمها تستغيث من صوت والدها الذي يصرخ كعادته كي توقف دموعها ودماءها على سرير ابنتها.

هجرت علاقتها القديمة وغيرت شكل صفحتها على النت وسمت نفسها «ملاك» علّها تكفر عن ذنبها، لكن القدر لم يتركها لحالها، سلط عليها الأشباح الذين يخترقون أحلامها ويهرسون عظامها وجسدها دون رحمة.

يأتون إليها بمجرد النوم ويطاردونها وهي تطير في السماء كيمامة مرتدية فستانًا أبيض، تهرب من أصواتهم المخيفة وتتنقل بين الأشجار والحدائق حتى تتعب أجنحتها من الطيران.

وحين تحطُّ على جبل عالٍ، ترى قذائف الطائرات والصواريخ المتعاركة وسط السماء ترمي على الناس تحتها كراتٍ وخرائط وأوراقًا وطرقًا ونابالم، فيهرولون مرعوبين من الجحيم ويدخلون شقوقهم، فتهرب مرة أخرى وتتوه وسط الحرب، لكنها تعود في النهاية إلى الشجرة الصامدة أمام باب منزلهم لتجد أمها في انتظارها، تخلع لها الأجنحة وتحميها حتى تنام، وعند تلك اللحظة تستيقظ سعيدة بعودة روح أمها إلى جوارها.

غيرت نبرة صوتها، ولون نظارتها، وأصبحت عضوة في جمعيات روحية ودينية، تعلمت الموسيقى والرسم، وواظبت على حضور ندوات ومعارض لرسامين وكتاب، وارتبطت ببشر يعيشون خارج إطار الكون، بشر ينعمون بأحلامهم غير عابئين بالقدر أو المآسي التي يغرق فيها الناس، اندمجت بخفة اليمامة وسط روائح عطورهم الفواحة، وشعرت بأن وجودها وسط هذا العالم هو الأمل الباقي لها حتى عودة «سعيد» من أسره.

باعت شقتها بأثاثها وملابسها، واشترت شقة بعيدة في حي معزول، وملأت بلكونتها بالزرع والزهور وعاشت كقديسة تتعبد في وحدتها.

لكن الشيء الغريب أن روحها النضرة وعيونها اللامعة انطفأت،

وملأت التجاعيد وجهها، وغرقت سماتها في الضباب والخوف، خوف لم أدرك سببه، ليس كخوفها الدائم من المجهول، ولكن كرعب من استمرارها في هذه الحياة.

ظهر ذلك في رنين صوتها المخنوق، فحين يحدثها أي شخص بصوت عالٍ أو يزعج سلامها، ينغلق وجهها، نعم ينغلق، وتراه واضحًا وسط جبينها أو بين حواجبها، ويظهر في هالتها ومشيها كخوف مكتوم، تزوم في صمت، كأنه روحها تختفي وسط عالم الأموات.

لم يكن يهمها كل ذلك ما دام معظم اليوم يمر في رواق الجامعة وبين المدرجات والطلاب، لكنَّ بريقها ضاع، وأصبحت مثل أقرانها شخصية مغيبة لا تبغي في يومها إلا قتل الوقت.

لكن الشيء الذي يزعجها هو حلمها بأن شخصًا شبيهًا بوالدها يدخل سريرها بمجرد نومها، يعرّيها ويتحسس جسدها بنعومة، كانت تنظر في عينيه وتصرخ رغم أنه يحدثها أثناء مضاجعته ليس كوالدها ولكن كقواد.

تصرخ كطفلة لا تعرف معنى دخول قضبان الرجال المنتصبة في فروج النساء، تتألم وتتأوه وتنادي بأعلى صوتها على أمها، لكن لا أحد يغيثها.

طار النوم من عينيها أيامًا وشهورًا طويلة لخوفها من عودة الشبح إلى أحلامها.

ظلت هكذا فترة ليست طويلة حتى تشمَّم الجيران رائحة كريهة تخرج من شقتها، حاولوا تذكر زيارات أحد أقاربها أو أصدقائها، وحين أنكر الجميع تاريخها، اتصلوا بالبوليس الذي كسر الباب واندهش من التقيحات التي ملأت جسدها قبل مغادرتها الحياة.

(4)

تسلم «نور» أخاه من المحكمة، وذهب إلى شقته، وقبع محزونًا داخلها مصممًا على إعادة عقله، وملازمته حتى الموت، ملأه تصوره بأنه السبب فيما حدث لأخيه بطاقة جديدة جعلته يترك حقله وبيته لزوجته وأولاده ليديروا حياتهم بأنفسهم.

تفرغ لإطعام أخيه وغسل ملابسه وإعطائه الدواء ومرافقته لزيارة الحدائق، وظل يتحدث ساعات وأيامًا برقة وأمل عن ذكرياتهما المشتركة، ذكَّره بأسراب الطيور التي كانت تنام على شجرة التوت التي تتوسط منزلهما، وكفاحهما في حقلهما كي ينتج أطيب المحاصيل.

ذكَّره بسنوات طويلة شكَّلت مخزون الحب داخل أرواحهما، لكن «سعيد» كان ينظر إليه ويضحك، ويردد اسم ابنه في حسرة.

أضحى اسم «ملاك» هو الشيء الوحيد الذي يذكِّر «نور» بعدم فقدان أخيه حاسة النطق، يسأله «سعيد» أحيانًا عن ابنه: أين سافر؟ ولماذا تأخر في إرسال الخطابات؟ ومستقبل العيادة التي ينوي فتحها له حال عودته من الهجرة.

باع «نور» مكتب أخيه، وسلَّمَ ملفات زبائنه لأحد زملائه، وأعطى لطليقته أكثر من حقوقها كي ترحل بعيدًا. زهد في متع الحياة، كأن في التفرغ لخدمة «سعيد» تكفيرًا عن ذنبه في النكوص بالأمانة التي أغرقت ابنه ودمرت أسرته.

رغم ذلك جاءته وسط الليل وجوه مغلولة أشبه بخصوم أخيه، يطلبون منه رقبة «سعيد» وإلا قطعوا لحمه، فيهرب منهم ويدعي جهله بمكانه مُخْفيًا مفتاح الشقة في جيب جلبابه السري.

لكنهم لم يصدقوه، وأطلقوا وراءه كلابًا مسعورة أشبه بالذئاب، جرى وسط أحياء لم يتخيلها، واختفى بمدخل عمارة مظلمة، انفتح فجأة وسط جدرانها باب لأسانسير ليس له سقف، ركبه وصعد إلى دوره الأخير.

فتح باب الأسانسير ليجد «سعيد» جالسًا على كرسي مركون على بسطة السلم مدليًا يديه ورقبته على صدره كمعتوه، صرخ بلسانه العاجز كي يناوله أي كائن كوب ماء، فهرول «نور» ودق أبواب الشقق ودخلها كمجنون لري ظمأ أخيه.

وعندما عثر على إحدى الزجاجات عاد إلى «سعيد»، وضع الزجاجة على فم أخيه العاجز ليتجرع سائلها الأسود ويبصق دمًا وديدانًا من فمه.

كان الحلم طويلًا لأنه مسح فم أخيه بملابسه وعافر حتى أدخل كرسيه من باب الأسانسير، وعندما نزل إلى الدور الأرضي وفتح

الباب، فوجئ بوجود أمه وأبيه في انتظارهما.

احتضنا «سعيد» وبكيا على ملابسه وخدوده، ونظرا لـ«نور» بحزن لأنه خان الأمانة، أو هكذا تصور.

كل يوم، وعندما يدخل الليل، يحكي لأخيه عن «مريمٍ» التي يعرف حبه لها، يحكي عن المشاهد القليلة التي جمعتهم عله يفتح أي ثقب في جداره الصلد الذي أقامه، أو شيدته الدنيا حول روحه العذبة فأخفتْها من الوجود.

حينما يسمع «سعيد» اسمها ينظر من شباك الحجرة إلى السماء، وإلى الطيور البعيدة، ويتأمل البراح دون أن يشعر بوجود أحد إلى جواره.

رغم صمته طوال الوقت، لكن «نور» كان يتحدث ليذكِّره بـ«سعيد» المنطلق المبتهج المحب للحياة، يحكي بشغف عن شخص آخر خلاف المريض الذي يتفرغ لخدمته.

كان يثق بأن هذه الحكايات ستعيد أخاه وتجعله يشعر بالحب تجاه شخص رقيق يعرفه، شخص غير الرجل الجالس إلى جواره والذي فقد هويته وعنوان مخزن ذاكرته.

كان يقول لأخيه أو لنفسه: «تمتلئ الحياة بالحزن، ولكن لماذا نترك أعيننا ترمق الرتق والعفن؟ ألا يجب أن نسمع صوت العصافير التي تملأ السماء؟ ألَا نرى الزرع الأخضر وهو ينبت؟ ألَا نحس بهدير المياه وهي تحيي الأرض العطشانة؟!

يقول ذلك، ويحلم لأخيه، كي يبدأ حياته من جديد، ويعاود افتتاح مكتبه والزواج والإنجاب مرة أخرى، امتلأ بروح آملة على غير عادته، روح يمكنها أن تنقل الجبل من مكانه لو أرادت، لكنها لم تتمكن من شفاء «سعيد».

آمن بإمكانية فتح ثغرة بجدار اليأس المشيد بأعماق بنيان أخيه الصلبة، رغم ذلك ظل «سعيد» سارحًا في عالمه، لا يتحدث إلا مع ابنه والطيور والبراح والأشجار، يناديهم باسمه ويضحك معهم ولا يشعر بطرق البشر في استعادة الذكريات أو حرقها.

(5)

كيف يمكن للبشر خلط معايير التميز داخلهم حتى إنهم يفقدون هويتهم، ولا يفرِّقون بين الصمت والكلام؟ وأي خوف يمكنه أن يؤدي إلى هذه المتاهة؟

أخافَ «سعيد» من نفسه، أم على نفسه، أم من المحيطين به؟ أَفَقَدَ الثقة بقدرته على العودة إلى النقطة التي انطلق منها، فاختلَّتْ معاييره؟ وهل ما جرى له كان رحمة من عقله تجاه ذاكرته، أم العكس؟

ولماذا يخلق البشر بجدران ذاكرات رقيقة صافية، لدرجة أن أي حزن أو ألم يهتك جدارها ويمزقها، ويجعل الأحداث تتناثر على رقعتها، ولا تعود تفرق بين الفعل الخبيث أو الطيب، بين الضجر أو السعادة؟

وهل تُعَدُّ إزالة الفواصل بين الخير والشر، القسوة والرحمة، درجةً من درجات المعرفة، أم مرحلة لم يصل إليها خيالنا؟

وما قيمة النوايا ودورها إذا كان الواقع لا يعبر دائماً عن رغبتنا وأحلامنا؟

وهل قدرتنا على تحمل القبح والخراب تُعد قوة، حتى لو كنا نقاومه بالسخرية؟ أنسخر من ضعفنا أم من بحر أسَانَا الممدود دون شطآن في داخلنا؟

كنت أراقب «سعيد» وهو يجلس بجوار أخيه علّني أجد إجابة في صمته، لكنه كان مع العصافير التي تطير، والموسيقى التي تعزف، والألوان التي تنضح بقيمة الحياة، هكذا فكر «سعيد» أو تخيلت أثناء جلوس «نور» بجواره محاولًا إعادته إلى عالمنا ليبدأ من جديد!

يغيب دون إشارة، ويترجل حتى الشباك المُطلّ على الحديقة، ويحدّث اليمام وينادي: «ملاك حبيب بابا، كده كفاية، متتأخرش عشان آخدك في حضني قبل ما أنام».

ألَمْ يرحمه العقل بفقده واقعه، ونسيان وجه ابنه الغارق ولون عيونه الضاحكة، وهو يتمدد على سرير المشرحة؟ ابنه الوحيد الذي تحمل قوة الدنيا من أجل أن يراه سعيدًا؟

لكن العقل والذاكرة بينهما سر وقانون لا يمكن لأحد أن يكتشفه، سر معناه دهس أحلامنا بالفقد.

وإلا فماذا سيكون حالنا لو أن هذه الآلة لا تعمل، أَوَ لَمْ تتكاتف الصدمات التي تلاحقنا في الشوارع والمنازل والأسواق لتعيد صياغتنا وإدراكنا وتغير ذاكرتنا حسب التاريخ والظروف؟

تقتلع الصدمات والمشاعر التي نؤمن بها، وتلصق على وجوهنا بدلًا منها أشخاصًا أغرابًا عنا، لكنهم يستمرون ليستكملوا المراحل

التي تسمى حياة، مراحل كثيرة نمر بها ما بين الولادة والموت، وما بين هذين الحدثين يكمن عذابنا.

كنت أنظر إلى حال «سعيد» وأندهش من هؤلاء المجرمين القابعين على مصدر توليد الأفكار وتطبيقها، لماذا يفجعون قلوب البشر بكل هذا الحزن والألم والفقد والموت؟ لماذا لا نفرح لكل ما يجري في واقعنا؟

ومن يدير هذه الأفكار سوى سفلة لا نراهم، لكننا نشعر بوجودهم داخل أعماقنا، نشعر بخناجرهم، بوخزهم، وهم يذكِّروننا بما يجب فعله، أو ينهوننا عن ارتكاب جريمة الحياة.

هؤلاء المنحَطُّون حولوا حياة خمسة أشخاص إلى جحيم بعد اغتيال اثنين منهم، اثنين كل جريمتهما أنهما رغبا في الأمل والسعادة والطهر، فقتلوهما غدرًا؛ عقابًا على جرأتهما.

أيشعر هؤلاء السفاحون بالفرحة وهم يسلبون الناس أهم ما يميزهم؟ وهم يسفكون دماءهم البريئة ببرود وبغض ليس لهما مثيل؟! لكن المهزلة أن الناس عقولهم خاوية، ولا يعرفون إلا هذه الطرقات التي تظهر واضحة أمامهم، بينما يفقد الذين يخرجون عن القضبان هويتهم.

أضحى اختيار «سعيد» للكلام الصامت طريقته الوحيدة للبقاء، أتكون هذه هي النهاية؟ لا أدري، دعاني ذهوله إلى الجلوس بجواره كي أراقبه وأسمعه وأحدثه علّني أفهم سر البكاء.

آمنتُ مثل «نور» بأنه من الأفضل أن نرى أي ضوء ونتجاهل كل هذا الظلام الدامس الذي يتراكم داخل أعماقنا.

فبدأت من النقطة نفسها التي قادت إلى المشكلة، وأيقنت بأن السر يكمن في السير بتروٍّ عكس الاتجاه الذي أدى إلى كل هذا الخراب، نعم لا يمكن أن نقاوم النسيان إلا بمعاودة التذكر لأصوات البشر وأحداثهم والوقائع المؤلمة التي وقعت لهم، لعلهم يفقدونها أو يتحرروا منها.

«براءة»

(1)

سألته: من أنت أيها الرجل؟ وكيف قضيت حياتك وسط الدائرة؟ هل تذكُرني أنا رفيقك الذي لازمك في جولتك وبحثك المجنون عن طيف ابنك؟

لكنه كان في وادٍ آخر، وادٍ سحيق لم تصله أي روح، كان مشغولًا بطيف «ملاك» الذي لم يفارقه، نعم ليس الموت جسديًّا، هكذا تفقد ذاكرتنا المعاني التي نهمل تذكرها، لكنها لا تنسى أبدًا تفاصيل الأشياء التي تدفعنا لمواصلة الحياة.

فهل خبأت ذاكرته غرق وليده في مكان سري تحتاج معرفته إلى فقد التميز كي يصبح ماضينا مثل مستقبلنا، ولا يبقى في أعماقنا سوى كنز دفين يُشِعُّ من حولنا براءة؟

هل يأتي يوم وتصبح ذاكرتنا مثل كيس الشاعر المفتوح الذي لا ينسى أي شيء ولا يتحكم أو يسيطر أو يمنع تنقل الأحداث بحرية في داخله.

أيأتي يوم ونتمكن من خداع الذاكرة أو إعادة تشكيلها بحيث لا تتذكر أي ماض ولا تفهم معنى مستقبل؟ وهل ما جرى لـ«سعيد» كان رحمة منّ أعماقه الدفينة كي تنهار الفواصل، فيستعيد وجه «ملاك» الغائب ويعيش مع طيفه كأنه موجود بشحمه ولحمه؟

أجلس جواره بالساعات وهو يحدث الهواء ويضحك ويتأسى ويطبطب على صور متخيله في الهواء، وينظر من ضلفة الشباك في انتظار حضور الطيف.

يتحرك داخل الشقة وبين الحجرات كأنه يكوي ملابس ابنه المفقود، يعد طعامه ويرتب مكتبه، ثم يجلس بعد فترة وحيدًا على كنبته كأنه يرغب في الراحة، ويصمت بعمق لم أدرك معناه.

كل من شاهده خلال هذه الفترة كان يبكي بحرقة على حاله، ولم يتمكن أحد من النظر في عينيه، كانوا مرعوبين من أثر الصدمة، المصيبة التي دخلت حياتهم دون أن يتوقعوا مفعولها المدمر.

كانوا يترجلون خفية في الظلام، وينظرون من خلف زجاج الشبابيك، ويصيبهم هلع يملؤهم بالصمت المطبق، صمت السكون، ودون وداع أو همس يتركونه ويغادرون، ولم يتمكن أحد من إرجاعه عن الطريق الواعر الذي رسمه لنفسه، أو رسمه آخرون له.

رغبت في اكتشاف المجهول الذي يعيش في رحابه، فتواصلت معه عبر الطعام، عبر الموسيقى التي أديرها أثناء الليل والنهار، عبر

تنظيف ملابسه.

راقبته من بعيد وهو يختلي بروحه، ويرسم على الأوراق صورًا لعصافير ويمام حول وجه ابنه.

رسم مئات الصور لحدائق ومزارع وبحار وسماوات، تحتوي جميعها على صورة بملامح بريئة، لطفل يضحك على الدوام.

ينظر بدهشة كشخص مفقود، ويكتب على الورق: «أحتاج ألوانًا، أوراقًا بيضاء، أقلامًا، ماكينة حلاقة، أحتاج حذاءً وقمصانًا واسعة، لا تضايقني فالليلة سأحتفل مع ملاك بعيد ميلاده».

أجلس بجواره أوقاتًا طويلة وهو يكتب الخطابات لابنه الذي يتصور أنه يعيش مع والدته، يكتب ويكتب كي يعود ليشم رائحته، يكتب حكايات عن طائرات ورقية، وآلات عزف، ومسارح، وحفلات، وأعياد ميلاد، ومدن وقرى زارها معه، ويطلب منه ألا ينسى ضحكته التي كانت أول شيء يتلقاه كل صباح.

يضع الخطابات في أظرف ورقية بيضاء كل يوم، ويكتب عنوان أمه عليها، ويرسلها إلى مكتب البريد، ويحتفظ بوثائق البريد في مكتبه، كأنه سيراه يومًا ما ويعاتبه على غيابه أو عودته.

(2)

كنت أشفق عليه، وربما أستعذب جروحه، حينما شعر بذلك بادلني بعيونه امتنانًا، امتنانًا ليس شبيهًا بالضعف، ولكنه مقرون بالقوة في اكتشاف نقاط ضعفنا، ما يبهجنا أو ما يبكينا.

شعرت أن بداخله كنزًا ثمينًا يستحق جلاء الغبار عن معدنه كي ينير العالم بوجه ابنه المفقود، والذي يطلب مني إحضار الخضر لحضوره الليلة كي يتعشى معه.

«لا تَنْسَ الخيار والبصل والجرجير والخس والفاصوليا والطاطس!»

كل أنواع الخضر أحضرتها وطبختها كي يأكل «ملاك» الذي لا أراه، ولكن أشعر مثل والده بحضوره، يعانقه ويلاطفه ويضحك ويلعب معه لعبة الحظ والغميضة.

أشترك معهما في اللعبة، فيتفاجأ «سعيد»، ويشعر برقعتي، مساحتي الراكضة في أعماقي، فيتواصل مع الطيف ويحتضنني، ويجلس بجواري ليحكي عن عيادة ابنه المفتوحة بالمدينة والتي لا تغلق أبوابها ليلًا أو نهارًا.

يتشاجر مع الملاك لأنه يرغب في النوم وترك المرضى يتعذبون، فأتدخل بينهما وأطلب منه أن يتركه ينام ساعتين فقط كي لا يموت المتألمون من الألم.

يتشاجران بعنف بعض الأحيان حين تأتي سيرة أمه «أمل» فيبدأ «سعيد» في عتابه الرقيق، ويغضب ابنه لأنه هو الذي اختارها لتكون أمه.

يأخذ «سعيد» نفسًا من السيجارة ويطلب مني عمل قهوته السادة ويطلب عصير ليمون لـ «ملاك»، ويحكي عن ثلاثة أشخاص حاصروه وحبسوه سنين طويلة داخل علبة حديدية مصمّتة لا تكفي إلا لرجل واقف.

كان يصرخ كأنه محبوس بين الأشخاص الثلاثة الذين حاصروه في الظلام ليسرقوا روحه ويُنسوه وجه حبيبه الوحيد.

لم يرتعب من وجوههم الشريرة، وظل وقتًا طويلًا يقاوم، وفي لحظة لم يتبين سببها، انفتحت العلبة أمامه وترجَّل خارجها فوجد نفسه يصعد سلّمًا درجاته طويلة.

حين وصل إلى نهايته شاهد حدائق واسعة مترامية، يتناثر وسط أشجارها بيوت بيضاء جميلة وتلتف حولها الرياحين والزهور الملونة المضاءة بلون أبيض.

ترجَّل مدهوشًا بين أبنيتها المنمقة يبحث عن الطيف، عن الملاك الذي يعرف أنه لم ينسه، وفجأة ينفتح أحد الأبواب ويظهر

ابنه بوجهه الضاحك الصبوح وينادي عليه: «بابا اتأخرت ليه؟ أنا جعان، الأكل هيبرد».

في تلك اللحظة يدخل في نوبة حزن مريرة، حزن من اختياراته الحرة أو المجبر عليها والتي بسببها فقد ابنه الوحيد.

(3)

وافق بعد حوارات طويلة مع طيف «ملاك» على مرافقة أخيه وزيارة منزل أبيه، وافق بشرط حضور ابنه معنا، جلس أخوه «نور» بجوار السائق، وجلست أنا والطيف بجواره في الكرسي الخلفي.

لم يصمت طوال الطريق وظل يحكي لابنه عن البئر المسحورة وأشجار البرتقال ورائحتها الفواحة، وعطر شجرة الورد التي كان يسقيها عند عودته من المدرسة، والمدرسين الذين أعجبوا بفراسته في كل مراحل التعليم، وحبه الأول، وقبلته التي لا ينسى طعمها، كانت ذاكرته مفتوحة ككيس المشاعر الذي لا يخفي حدثًا ولا يعرف كذبًا.

حينما نزلنا من السيارة أخذ طيف «ملاك» من يديه وعرَّفه بنفسه على أولاد عمومته الذين يعرفونه لكنهم لم يسمعوا عن نجاحاته الباهرة في شفاء الناس.

يحكي بشغف حكاياتٍ عشتُها بنفسي أثناء لقاءاتها الوهمية بشقته، الجميع يسمعه ويبكي، ليس بدافع الشفقة، ولكن بسبب شعورهم بألم الفقد الذي لا يوازيه أي حزن أو قهرة.

كانوا يحافون على ذاكراتهم، فيطلبون منه ترك ابنه دقيقة واحدة حتى يروه أعشاش النحل، فيصمت للحظات، ثم يجري وراءهم ويأخذ طيفه من يديهم، خوفًا من لدغات إناث النحل المميتة.

تركوا كرسيًّا بجواره خاليًا ليجلس «ملاك» عليه، ووضعوا في الأطباق نصيبه من البط والمحاشي. انشغل عن صمتنا وتحدث مع الطيف كأنه يقوِّيه، يفصِّص لحم البط ويدخله بفمه، ويهدهده، ليأكل وينتشي كطير البحر.

في نهاية اليوم، ودَّعَنا «نور» والبكاء يغرق عينيه، كان حزينًا رغم ما قدمه من جهد لا يتحمله أحد في سبيل إعادة أخيه لحياته، لكن القَدر كان له رأي آخر في حمل الأمانة.

(4)

وافقني «نور» على برنامجي الذي وضعته، ومدَّني بكل ما طلبت لشفاء أخيه، وقررت بضراوة تطبيق نظرية خرق التوازن وتثبت الحاضر لبناء المستقبل على أنقاض الفقد، استعنت ببعض الأطباء لأتحول إلى ابنه ويتحول «سعيد» إلى والدي، ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك؟

كنت متيقنًا من النجاح، فالرجل بكامل قواه العقلية، ويعرف كل شيء، ويتذكر كل الأحداث بتفاصيلها، لكن في وجود طيف ابنه فقط.

حاولت خداع ذاكرته حتى لا تعرف الفرق بيني وبين «ملاك»، ولكن كيف ستنطلي هذه الحيلة على عقله.

لا يهم، فالموت ليس في الجسد؛ بدليل أن «ملاك» حي يرزق في الشقة التي أعيش فيها معه، رغم أن الجميع دفن جثته بعد غرقها وسط النهر.

في كل يوم أتسحَّب ببطء إلى مخزن أسراره لأدخل مكان «ملاك»، فيحدثني في أمور كثيرة مثل طعامي أو لباسي أو عملي في العيادة،

أتداخل مع الطيف لنرسم صورة في داخله لابن عاش ومات دون امتلاء فضاءاته الرحبة بخياتنا.

يحدثني كـ«ملاك» للحظة، ثم يفيق وينظر إلى جوارى، ويستكمل حواره مع الطيف، لا يهم؛ لأنه استجاب للخديعة كومضة، وفي اليوم التالي استجاب لدقيقة، ومع نهاية الأسبوع لنصف ساعة، وفي نهاية الشهر لساعتين، وهكذا نجحت التجربة بعد عدة شهور.

(5)

عاملنى أخيرًا كابنه وبادلته أحاسيس الأب، ولم أعد أدرى في النهاية من الذى تحول فينا؟

يوقظنى من النوم ويطلب منى الذهاب إلى العيادة، فأنصاع، وألبى أوامره وأخرج للسوق والعودة بمتطلبات المنزل.

بعد الطعام ونأكل معًا ويدخل سريره بعد احتضانى وشكرى على قبولى العيش معه وعدم تركه وحيدًا.

اتفقت مع «نور» على سفرى معه خارج البلاد علنى أجد في سماء أخرى أى منفذ يذكره بماضيه الممتلئ بالعطاء فيشفع لنفسه ويقبل رحيل الملاك من حياته.

فى ليلة شتوية اتكأت على ضلفة الشباك ناظرًا إلى القمر البعيد، فاقترب منى مبتهجًا فأبلغته برغبتى في السفر لاستكمال دراستى.

لم يتردد واقتنع بضرورة إغلاق العيادة وسفري. وافق بشرط مرافقتي، على ألّا تأتي معنا أمي «أمل».

ساعدنا «نور» على استخراج التذاكر والأوراق الرسمية، وفى

اليوم الأخير ودَّعنا حتى صالة المطار وبكى بحرقة على وجه أخيه وصدري، وقال بحب لم أتوقعه: «لو كان ابنه حيًا ما تحمله وساعده مثلما فعلت».

كانت السماء تمطر، والدموع تغرق وجوهنا، و«سعيد» يقف في المنتصف بيني وبين «نور» ويدعونا لإنهاء المشهد، احتضنني «نور»، وقال لأخيه الوحيد: «اشفع لي عند أمك كي تغفر نكوثي عن حمل الأمانة».

ذاب «سعيد» في حضنه، ولم تَكْفِ دموعهما معادلة القهرة التي حرقت أرواحهما، نظرا إلى بعضهما نظرة أخيرة، نظرة تقول إنهما لن يريا بعضهما مرة ثانية، نظرة يترك فيها الأخ أخاه يرحل إلى المجهول؛ لأنه لا شيء هنا سوى الموت.

الوراق

2016



